بنت أبيها

(مخطوطة قصصية)

خيال علمي / إنساني / فلسفي

عبد الحكيم عامر الطويل

فانتازيون للنشر والتوزيع

الأنبياء وارض مصر

فور ريد

❤ إهداء ❤

إلى جوهرتي الأولى ..

ابنتي زُمُرُّدَة ..

مُلهِمتي في إحدى قصص هذا الكتاب ..

.. وعنوانه!

الأنبياء وارض مصر

فور ريد

يحاولون جَذبي إلى ثقوبهم السوداء..

وأحاول جذبهم إلى مراكز المَجَرَّات..

حيث النور والأمل .. وإعجاز الخَالق.

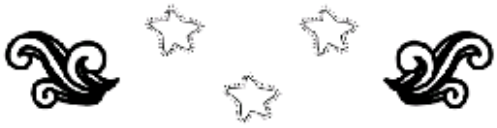

الأنبياء وارض مصر
فور ريد

لُغز المَقبرة

كان كشفًا غير مسبوق في المدينة؛ إذ لم يكن بالإمكان رؤيته قبل سنة 1987؛ فقد كان مُحاطًا بأشجار كثيفة، وبحدود ميناء المدينة وتحوطات أمنه من جهة البحر (الشمال)، أما من جنوبه فقد كانت تُعيق رؤيته حراسات المحكمة العليا ومبنى التلفاز المجاور لها، اللذيْن لا يفصلهما عن هذا الموقع إلا عرض طريق الشط القديمة. كانت الحراسات لا تمانع مرور السيارات أو المشاة، لكنهم يحظرون عليهم الوقوف جنوب هذا الموقع ولو لدقائق.

t.me/alanbyawardmsr

في هذه الفترة أثار هذا الموقع فضولي؛ فمن شكل سوره الجنوبي المقابل لطريق الشط القديمة تيقنت أنه موقع أثري، لكنني اعتقدت أنه بقايا حصن عثماني، تشير الخرائط العثمانية القديمة للمدينة أنه يقع في هذه المنطقة من الشاطئ، غير أنه لم تتبقَ له أي آثار ملحوظة. ولأن المكان يقع على منحدر ترابي شديد ينتهي بآخر الحدود الشرقية لأرض الميناء التي تفصله عن شاطئ البحر، ونظرًا للحراسات من جهته الجنوبية، لم أتمكن من الاقتراب منه. إلا أن فضولي بدأ يزداد بعد أن سألت مَن كنتُ أعتقد أن لديهم معلومات عنه، ولم أحصل على أي إجابة منهم. صار الفضول ينهشني كلما مررت من طريق الشط!

t.me/read4read

أثناء أعمال حفر وإزالة وتوسيع الأراضي المحيطة بخط طريق الشط الجديدة مع سنة 1988، أزالوا الكثير من الأشجار الكثيفة التي كانت تحيطه، كما انكمشت حدود أرض الميناء نحو الغرب التي كانت تعزله عن شاطئ البحر أمامه، فصار فجأة مفتوحًا على شاطئ البحر ومكشوفًا للجميع، ومع عشية يوم الاثنين 1990/06/25 تمكنتُ من رؤية هذا الموقع بتمعن

الأنبياء وارض مصر
فور ريد

لأول مرة من جهته الجنوبية العليا (جهة المحكمة العليا والتلفاز)، بعد أن خفَّت حدة الحراسات هناك طالما أنه صار مكانًا عامًا مكشوفًا تحيط به طريق الشط الجديدة من الشمال والقديمة من الجنوب، إلا أن شجرة الزيتون الكثيفة التي بدت واضحة في وسطه إضافة إلى الحشائش التي غطت أرضيته حجبت المشهد الداخلي! فزاد منذ تلك اللحظة فضولي عن هوية هذا الموقع، إلا أن انهماكي في عملي الوظيفي الجديد آنذاك لم يسمح لي بأكثر من ذلك.

بعد ذلك بثلاث سنوات، وبينما كنت مارًا بسيارتي على طريق الشط القديمة خطر في ذهني الاقتراب من هذا الموقع ثانية، وبما أنني لم أجد أي ممانعة من حراسات المحكمة العليا والتلفاز المجاور، اقتربتُ حتى وقفت ملاصقًا لزاويته الجنوبية الشرقية، فصار واضحًا أنني أمام مقبرة عتيقة غير إسلامية؛ إذ بدا لي واضحًا أن عدة قبور فيها تعلوها شواهد رخامية عليها كتابة لاتينية.

t.me/alanbyawardmsr

حينما سألت الأصدقاء والأقارب عن هذا الموقع فوجئت بأن أغلبهم لا يعلم شيئًا عنه؛ ربما لاختفائه عقودًا طويلة أسفل الأشجار الكثيفة وحراسات ميناء المدينة شمالًا، وحراسات المحكمة العليا والتلفاز إلى جنوبه. غير أن القلة التي ذكرت شيئًا عن الموقع تضاربت أقوالهم، بين مقبرة يهودية أو أمريكية؛ حيث ضمت أجساد ضحايا السفينة (فيلادلفيا) الأمريكية التي أغارت على المدينة ضمن أول أسطول بحري عسكري أمريكي أيام تلك الأزمة السياسية التي وقعت بين البلدين في 1801.

t.me/read4read

الأنبياء وارض مصر
فور ريد

مساء يوم الاثنين 1993/08/16، وبينما كنتُ مارًا من طريق الشط الجديدة فوجئت بباب هذه المقبرة مفتوحًا على غير العادة، فقلت لنفسي أن هذه فرصة لكشف غموض هذا الموقع جاءتني لوحدها. ما إن دخلت من الباب حتى شعرتُ وكأنني أعبر حاجز الزمن! وجدت نفسي فجأة وسط مقبرة كأنه لم يدخلها أحد قبلي منذ أكثر من 100 عام، تحمل قبورها شواهد رخامية عتيقة أكل منها الزمن كثيرًا. أما الأفرع الضخمة والمتشابكة لشجرة الزيتون المزروعة بوسطها، والتي حجبت عن الرؤية مساحة كبيرة من المقبرة وجزءًا كبيرًا من أشعة الشمس، فقد جعلتني أشعر وكأنني وسط كادر فيلم رُعب يُصوّر وسط موقع حقيقي من الماضي انتقلتُ إليه بمركبة زمنية لم يخترعوها بعد!

t.me/alanbyawardmsr

كانت إحدى المفاجآت السارة لهذا اليوم هي وجود شاهد أجاب على السؤال الرئيس الذي كنت أحمله معي ذلك اليوم (ما هو هذا الموقع؟). كانت مقبرة بالفعل؛ فقد شمل ذاك الشاهد اسم المقبرة وتاريخ تأسيسها (سبتمبر 1830)، إضافةً إلى أسماء مؤسسيها. ورغم بدء ظهور عوامل التعرية على كلماته المنقوشة، سقط معظم طلائها الأسود، إلا أنه ما زال بالإمكان قراءة غالبية كلماته، المكتوبة كلها باللغة الفرنسية.

t.me/read4read

بعد دقائق من عودتي إلى زمن تلك الأمسية الحقيقي، صعقتُ حينما لحظت آثار تخريب عشوائي متعمد للكثير من هذه القبور وشواهدها، التي ظلت شظاياها مبعثرة في أرض المقبرة، إضافةً إلى تهدُّم متعمد لجزء كبير من السور الشرقي المهترئ أصلًا، ولولا انخفاض أرض المقبرة لسهل الدخول إليها من هذه الجهة. بدا لي أن السبب الرئيس لهذا التخريب هو طريق الشط

الأنبياء وارض مصر
فور ريد

الجديدة؛ إذ أنها كشفت المقبرة فجأة للجميع. ومن تجوالي السريع وسطها وخارجها لم أجد أي شيء يثبت ذلك الاعتقاد السائد في أنها مقبرة أمريكية؛ لم أجد سوى شواهد تثبت أنها تعلو قبور زوجات وأطفال وقناصل من جنسيات أوروبية مختلفة، تواريخ ميلادهم ووفاتهم تعود إلى القرن الـ19، إلا أن أيًا منها لم يَحْوِ أبدًا كلمة (فيلادلفيا). ومع ذلك شعرت بقيمة هذا الموقع الأثرية البالغة وجسامة الخسارة البالغة التي أصابته، كما شعرت بالأسف كيف أن موقعًا هامًا كهذا لا وجود لأي كتاب أو حتى مقالة منشورة عنه! وبما أنني أدركت قيمته التاريخية الأثرية البالغة وجدت نفسي لا شعوريًا أتجه سريعًا إلى بيتي لأجلب قفلًا كنت أحتفظ به، ثم عدت إلى المقبرة وقفلت به بابها!

t.me/alanbyawardmsr

في صباح اليوم التالي زرتُ رئيس مصلحة الآثار وأعلمته بالتخريب الواقع. في تلك الجلسة عرف لأول مرة أن هذا الموقع هو مقبرة مسيحية عادية ولا وجود لدليل مكتوب يثبت علاقة (فيلادلفيا) بها، فسألني مستفسرًا: «لماذا سُميت بالأمريكية إذًا؟»، هنا عرضت عليه رغبتي في أن أبدأ دراسة هذا الموقع، وما هي إلا دقائق حتى تحصّلت منه مشكورًا على هذا الإذن.

t.me/read4read

لم أنتظر كثيرًا لبدء دراستي لهذه المقبرة؛ ففي مساء ذات اليوم كنت بداخلها ألتقط أول معلوماتي عنها باليد والصوّارة وقلم الرسم أرسم به أول معالمها بادئًا دراسة ميدانية ونظرية، على مدى يومين قمت بوضع مخطط هندسي لقبور هذه المقبرة ثبت لي فيما بعد أنه أول رفع يجرى لهذه المقبرة، ثم طوال 3 سنوات متواصلة انهمكت في تدوين جميع نصوص شواهد قبورها التي بلغت 56 قبرًا، 25 منها كانت بلا شواهد للأسف، أي أن نصف

الأنبياء وأرض مصر
فور ريد

قبورها قبور مجهولة بلا أي شواهد تفيدنا بهوية شخصياتها. من خلال دراستي تبين لي أن أول دفن فيها كان في 1804، ثم تأسست رسميًا في 1830، وكان آخر دفن معروف فيها في سنة 1917.

من نصوص شواهد قبورها، تبيّن لي بشكل واضح أن أغلب أصحابها شخصيات كان لها دور كبير في صياغة تاريخ المدينة، أو أقارب من الدرجة الأولى لمثل هؤلاء؛ وكعادة المقابر المسيحية كانت هذه الشواهد تحمل نصًا شبه موحد، يبدأ بجملة تَرَحّم، ثم اسم صاحب القبر، وتاريخ ومكان ميلاده، وتاريخ ومكان وفاته. إذا كانت امرأة يُذكَر اسم زوجها، وإذا كانوا أطفالًا يُذكَر اسم أبيهم، والكثير من هذه الشواهد ذَكَرَ سبب الوفاة كذلك، مرضًا أو غرقًا أو ضربة شمس! ثم خُتِمَت بعض نصوص هذه الشواهد بآيات من الكتاب المسيحي المقدس.

في الواقع كانت أغلب هذه الشواهد ممكنة قراءتها، غير أن أكثر ما أدهشني فيها ذلك القبر الذي حمل شاهد قبره نصًا إنجليزيًا، جاء أسفل اسم صاحبه سنتي ميلاده ووفاته فقط بهذه الطريقة:

Brian Stewart

Born 4749 – Died 1832

كانت قراءتي الأولى هي أنه على ما يبدو قد تم دفن ذلك الرجل على عجل؛ فنص شاهده هو من أفقر نصوص هذه المقبرة؛ فلا يشتمل على تلك المقدمة التي يستهل بها عادة النص الإنجليزي: (كرس في ذكرى فلان Sacred in the Memory of)، كما لم يذكر النص وظيفته التي عادة ما تذكر في هذه

المقبرة، الأهم هو أنه من المؤكد أن من دفنوه كانوا قد تعاقدوا مع أرخص ناقش شواهد في المدينة وأسوأهم، ربما يكون من المالطيين المقيمين الذين يزعمون معرفتهم باللغة الإنجليزية وهم أسوأ أهل المدينة نطقًا بها! إذ بدا لي منذ اليوم الأول الذي وقفت فيه أمام هذا الشاهد أنه توفي في أولى سنوات تأسس هذه المقبرة؛ فمازالت الجالية حديثة العهد بالناقشين الأكفاء لتتعاقد معهم فيما بعد، كما أن سنة وفاته كانت بداية اضطراب سياسي عسكري كبير أصاب البلاد نتيجة أزمة اقتصادية خانقة؛ ففي تلك السنة ثار أهل المدينة على أميرهم، لهذا لم أستغرب أن يكون ناقش هذا الشاهد قد أخطأ في تاريخ ميلاده؛ فلا يعقل أن يكون قد وُلد سنة 4749 وإنما في 1749، أي أنه أخطأ في شطب الرقم 1 أفقيًا من منتصفه، فبدا وكأنه الرقم 4. فإذا كان ما ذهبت إليه صحيحًا، تكون تلك الشخصية قد ولدت سنة 1749 وتوفيت سنة 1832 عن عمر 83 سنة، وهذا بصراحة رقم عجيب ربما انفردت به هذه الشخصية لوحدها من بين كل الراقدين فيها! فأغلب أعمار الوفاة في هذه المقبرة من بين القبور التي علمنا تواريخ وفاتها وميلادها كانت في الأربعينيات. قبر واحد في الخمسينيات، قبران في الستينيات واثنان في السبعينيات، العجيب أن هذا جاء لوحده من بين من عرفنا أعمارهم يتجاوز الجميع بعقد كامل! كما حيّرتني إجابة تساؤل آخر؛ فحينما تصفحت أشهر الأسماء الإنجليزية منذ 200 عام لم أجد (براين) من بينها! وبحث تالٍ أثبت لي أنه من الأسماء المعاصرة!

على أي حال، اللجنة التي شكلتها مصلحة الآثار لدراسة هذه المقبرة رشحت هذا القبر بالإجماع لنقل ملفه إلى لجنة التحاليل المُوَرِّثية (الجينية) لعدة أسباب، منها غياب مكان ميلاده ومهنته، وهذه الربكة الواضحة في تاريخ ميلاده. وعلى عجل أخذت بعناية عينات دقيقة من عظام الرفات بواسطة جهاز مماثل لمنظار العمليات الجراحية، ثم أُرسِلت العينات إلى مختبر

متخصص لتأتي النتائج بعد أسبوعين أكثر من صادمة!!

هذا الرّفات يحمل مُتَحَوِّرات حديثة لم نجدها في أي من أجساد القرن التاسع عشر، بل أننا لم نعهدها حتى في شجرات العائلات المكتشفة في القرنيْن العشرين والحادي والعشرين! فإما أنه يستحيل أن يكون من أبناء القرن التاسع عشر، أو أنه أول من حمل هذه المتحورة في كل العالم، وبقي لوحده يحملها سرًا طوال قرن! أثار هذا الكشف ضجة إعلامية عالمية تصدرت عناوين أَخبار أغلب الفضائيات، كما تناول المئات من الباحثين هذه النتيجة في مقالات وتعاليق إما بالسخرية أو بالتكذيب أو التشكيك، بعضهم نصحنا مرارًا بإعادة التجربة، لكننا كنا نجيبهم دائمًا بأننا لسنا من قام بهذا البحث ولا من أظهر نتيجته، وإنما سلمنا عيناته إلى المختبر المرجعي الدولي كما تفعل كل جامعات العالم ومراكزه البحثية المعترف بها. هنا بدأتُ أتساءل بهلع عن مدى صحة فرضيتي بشأن الخطأ في كتابة سنة ميلاده على شاهد قبره (4749)!

مُشكلة حَمْل

كانت المهندسة (تازيري)[1] جارتها وصديقتها وشبه عائلتها في (ليبيا 7)[2]، تلك المستوطنة الأرضية البعيدة على سطح القمر (يوروپا Europa)[3]، بالأحرى هي بقايا مستوطنة أسستها مجموعة شركات بهدف الربح السريع، لاستخراج كتلة كبيرة من الزُّمُرّد النادر، اكتشفوها بالصدفة في أعماق (وادي ليبيا Libya Linea)[4]؛ حيث بسببها نشأت تلك المستوطنة على ضفة هذا الوادي، لكن ما إن تجاوزت تكاليف الاستخراج هامش الربح حتى أهملوها تمامًا كعادة الشركات، فصارت المستوطنة وسراديبها ومطارها ومكاتبها بعد أقل من 100 عام مجرد قرية مهملة تؤوي الفقراء واللاجئين. لكن في الزقاق الوحيد لتلك المستوطنة مازال مُوَلِّد الأكسجين القديم يعمل بفضل خبرة (تازيري) الميكانيكية، ما دام عدد سكان هذه القرية ضئيلًا ثابتًا! ولم تجد (تازيري) خيراً من مكتب مهجور في منتصف الزقاق لتقيم فيه، حيث كانت جارتها الأرملة (مورينجا) خير ونيس لها في هذه الوحشة.

كانت (مورينجا) على اتصال شبه يومي بأهل زوجها وأبنائها، الذين انتشروا في باقي المستوطنات الأرضية على كواكب وأقمار مجموعتنا الشمسية، عبر شاشة الاتصال العملاقة التي مازالت تعمل على جدار غرفة المعيشة. وكانت جارتها (م. تازيري) تُذَكِّرها دومًا بالنعمة التي تعيشها رغم ضيق حالها الاقتصادي. كانت تعتبر مُجرد زواجها نعمة طالما أتى لها بسلسلة أبناء وبنات؛ حيث كانت هي تعاني لوحدها بصمت.. بلا زوج ولا أولاد.. ولا يدري أحد سر ألمها هذا؛ فهي من النوع الكتوم رغم جمالها ورِقَّتها.

كانت تعمل بنشاط، ومنذ سنوات قليلة فقط أرهقها الصمت والكتمان، وأسئلة فضول النسوة اللاتي يحاولن دومًا كسر عزلتها. ويبدو أن (مورينجا)

t.me/alambgawardmsr
t.me/read4read

الأنبياء وارض مصر
فور ريد

قد نجحت في إحداث ذلك الشق الصغير المرتقب في نفسها، حتى خرج منه الكثير! ففي مساء طويل، جلست السيدتان في غرفة معيشة بيت (مورينجا) البسيط المربعة، يشاهدان فيلمًا جديدًا من شاشة الاتصال العملاقة التي غطت أحد جدرانها؛ كان الفيلم عن قصة نجاح أسرة صغيرة مكونة من أم وابنتها، نجحتا في إنشاء مصنع صغير في المستوطنة الأولى على كوكب المريخ[5] لإنتاج زيت الزيتون، ذلك الذي ورثت شتلته من كوكبنا الأم (الأرض) أبًا عن جد لأجل هذه الغاية. كانت (مورينجا) من حين لآخر تسترق النظر إلى عيني (تازيري)، فتجدهما كالعادة مثقلتين بالحزن والاستغراق البعيد. ربما أهم أسباب نجاح صداقتيهما هو أنها لم تكن تثقل عليها بالأسئلة الشخصية، لكن ما لابد من حدوثه سيحدث يومًا؛ فكانت تلك الأمسية من تلك الأمسيات النادرة التي شَفَّت فيها روح (مورينجا)، وضعف فيها سياج (تازيري) العازل! وبدل أن يبدأ الحديث من (مورينجا) كما هو متوقع، تكلمت المهندسة (تازيري):

- «تضايقني الأفلام العائلية.. هلَّا بحثتِ لنا عن برنامج آخر من فضلك؟»

كانت جالسة باضطراب في منتصف الأريكة المقابلة تمامًا للشاشة العملاقة، مرفقاها يتكئان على رُكبتيها، وذقنها يرتاح على تشابك كَفيها. كانت (مورينجا) تجلس على يسارها، مباشرة على البساط الممتد بين الشاشة والأريكة. كانت تُمسك بيسراها قطعة لباس بالية، وبآلة خياطة قديمة بيدها اليمنى كانت تخيط بها حاشية في اللباس، وما إن سمعت طلب (تازيري) حتى توقفت وضبطت نظارتها الطبية بيدها اليمنى فوق أنفها، ثم وضعت آلة الخياطة بجانبها على الأرض ورفعت جهاز التحكم بجانبها، وجّهته نحو الشاشة ثم التفتت إلى (تازيري) وقالت لها:

- «سمعًا وطاعة يا عزيزتي، فقط لو تخففين عنك هذا الألم وتخبريني بشيء مما يثقل كاهلك!»

t.me/atanbyawardmsr
t.me/read4read
الأنبياء وأرض مصر
فور ريد

وكأن (تازيري) كانت تنتظر هذه اللحظة لتُنَفِّس قليلًا عن ما يملأها ضيقًا، فأجابتها بقولها:

ـ «ما يحز في نفسي ليس صعوبة جمع المال ولا النجاح الوظيفي؛ هذه أشياء وجدت نفسي أتقنها منذ عرفت الدنيا. كنت محبوبة دائمًا من كل زملاء عملي، بل كثيراً ما لاحظت وَلَه أيديهم المستتر لتتكئ على كتفي أو كفي. كانوا يتسابقون على صداقتي، لكن الأمر كان يقف عند أول موعد عاطفي. أردتهم أن يدركوا أن الفراش لا يعني لي شيئًا بقدر ما أذوب في كلمات العشق. كانوا ينصحونني حينها بزيارة طبيب!! وكانت هذه الدعوة تتكرر ولا يدركون أن الطبيب لا علاقة له البتة بي. ما أكثر تخلف هؤلاء! كنت أقول: (أما زالت للطبيب سطوة في عصرنا!؟)»

t.me/alanbgawardmsr

«بالطبع لم يكونوا كلهم من هذه النوعية؛ فغيرهم كان يسارع إلى عرض الزواج، مبررًا طلبه بأنني شديدة الجمال والعاطفة لدرجة أنني لا أرتكب هفوة عاطفية معهم، فلماذا لا أقبل زواجهم أو حتى صداقتهم؟ كان سرًا دفينًا أعمد دائمًا إلى تعميق مدفنه في نفسي، متمنية ألا يرى النور أبدًا؛ لأنني أدرك أنه ما إن أصارحهم به حتى يهربوا مني، فأخسر كل ذلك التقدير العالي منهم، الذي تحلم به كل أنثى طبيعية، فيما أعتقد. لا أريد الاستماع إلى موسيقى الوحدة؛ حيث لا يعزف فيها غير دقات قلبي المتوترة. نعم أحب كأي أنثى قصائد الغزل والشوق، لكنني لا أستطيع تقديم ما يريدون»

t.me/read4read

ثم نهضت من كرسيها في انفعال، واقتربت من نافذة الغرفة على يمينها التي لا تُطل سوى على سهل أبيض عريض بعيد لا ينقطع، ثم التفتت إلى (مورينجا) ومعالم عودتها إلى الزمان والمكان بائنة في عينيها. نظرت قليلًا إلى الشاشة العملاقة، ثم عادت تلتفت إلى (مورينجا) وقالت:

ـ «لا تفهميني خطأ، أحب أن أكون زوجة معشوقة، بل سأعترف لك بأنني متيمة كذلك بالأطفال، وكم انعصر قلبي عصرًا حينما مرّت من أمامي في المطارات تلك الأسر السعيدة مع أطفالها، بل كثيراً ما قلت لأمهات تلك الأسر التي جلست بجانبي صدفة وأعربت عن ضيقها من إزعاج أطفالها: (أتُعيريني أطفالك المزعجين هؤلاء؟)، إحداهن ظنت أنني أريد خطفهم ففرت المسكينة من كرسيها مذعورة!»

صمتت وعادت إلى كرسيها، وعادت عيناها إلى الشرود بعد أن تعلقت بفتحة التهوية الصغيرة في السقف. لم تشأ (مورينجا) أن تقطع صمتها، أدركت أنها تعيش حالة نادرة ومرحلة زمنية مع (تازيري) ربما لن تتكرر، فلم تنبس بكلمة، واصلت خياطتها وكأنها تجلس لوحدها في المكان. يبدو أن (تازيري) كانت بحاجة فقط إلى التزود بشيء من الطاقة الإضافية لتُخرج ما كانت تعجز عن حمله لسنوات، فنطقت بعد لحظات من الصمت:

ـ «يعتقدون أن كل من حولهم مثلهم؛ طبعًا فاللص يظن الجميع لصوصًا، والصادق يظن الكل صادقين. لا أدري إن كان هذا مديحًا لي أم سوء فهم، لكن ليس بالضرورة أن أكون غريبة أو مريضة أو مضطربة نفسيًا إن كنتُ لا أستطيع تلبية رغباتهم؛ فبالنسبة للعشاق العابرين، لماذا لا يضعون احتمال أنني خُلقت هكذا لا أرغب في الجنس؟ ولهؤلاء الذين يرغبون في الزواج، لماذا لا يقنعون حينما أقول لهم إنني لن أنجب لكم أطفالًا؟ لماذا يتصورون إن ذلك يعني عدم احترامي للحياة العائلية؟ بل لماذا يعتقدون إنني عاقر بحاجة إلى طبيب بعد أن أزال الأطباء كل موانع الحمل والولادة؟»

هنا وجدت (مورينجا) نفسها تسأل بسذاجة تجاوزت فيها محاولاتها عدم إزعاج (تازيري):

ـ «أخفتني (تازيري)!! إذا كنت تتوهين هيامًا بالكلمات الشاعرية الجميلة،

وتحبين الحياة العائلية والأطفال، فما المانع إذًا!؟»

نظرت إليها (تازيري) جيدًا، ثم قالت لها:

ـ «أتظنين أنني مريضة نفسيًا؟»

ارتبكت (مورينجا)، وسارعت بالاعتذار الشديد. غير أن (تازيري) قاطعتها:

ـ «ألا يوجد أي احتمال آخر؟ نعم العالم تطور اليوم عن 500 سنة مضت، فلم تعد مشاكل الإنجاب عائقًا. لكن ماذا لو كان لدي تركيب خاص مختلف؟ لا أتحدث عن عقدة نفسية فهذا يدحضه كَم المعجبين بي طوال حياتي، أقصد ماذا عن طفرة جديدة مثلًا لم يكتشفها البشر تمنعني من الإنجاب؟ لماذا يجب أن يكون عيبًا وعلى الآخرين الإشفاق علي؟ لماذا يعتبرون عدم إنجابي مجرد خلل أو جهلًا مني!؟»

«طيب ألا يقولون إنهم يعيشون عصر المعجزات البشرية والحرية والمساواة شبه المطلقة؟ فماذا لو كنت مثالية في العمل، لي قدرة مثالية على التأثير في نفوس الذكور، لكنني أتألم صباح مساء لعدم قدرتي على ولادة ابن لهم؟»

«ماذا عن التبني؟ لماذا لا يعتبرونه خيارًا مثاليًا مناسبًا.... لأي إنسانة آلية!؟»

تجمدت (مورينجا) شاخصة الأبصار على الشاشة، وكأنها تريد أن تتأكد أن الكلمات التي ختمت بها (تازيري) كلامها لم تكن منها وإنما هي جزء من حوار الشاشة، ثم خافت أن تلتفت إلى (تازيري)، وعجز لسانها عن قول شيء، عدا سؤال خافت ارتعش طويلًا في لسانها قبل أن تلفظه في خوف، وعيناها متجمدتان في قطعة اللباس بين يديها:

ـ «هل أنتِ حقًا آلية، (تازيري)!؟ ألهذا تعيشين منزوية هنا وحيدة؟»

غير أن تازيري لم تُجِبْها، خرجت من البيت قبل أن تقول (مورينجا) ما قالت ثم لم ترها أبدًا بعد ذلك، قيل إنها انتقلت للعمل في محطة (امـرؤ القَـيّـس)

(1) (تازيري): اسم أمازيغي ليبي أنثوي شهير بمعنى (كوكب القمر).

(2) (ليبيا 7): اسم حقيقي معتمد من الاتحاد الفضائي الدولي.

(3) (يوروپا Europa): أحد أقمار كوكب المشترى، ضمن الأقمار الأربعة الأولى التي اكتشفها الفلكي الإيطالي (جاليليو جاليلي) في عام 1610، وعُرفت باسم (أقمار جاليليو) على اسمه، سبق وأن أشرت إليه كأحد أمكنة قصة (مجرد سائق أجرة) في مجموعتي الأولى (مشكلة إيمانية)، حيث كتبته هناك (أوروبا) وثبت لي أن رسمه الصحيح هو (يوروپا).

(4) (وادي ليبيا Libya Linea): اسم حقيقي اعتمده الاتحاد الفلكي الدولي International Astronomical Union لأحد أخاديد سطح هذا القمر، وقد سبق وأن أشرت إليه كأحد أمكنة قصة (مجرد سائق أجرة).

(5) اشتق اسم (مريخ) في العربية من (أمرخ)، والأمرخ في اللغة العربية هو الملطخ باللون الأحمر، فـ(المريخ) أي (ذو اللون الأحمر)؛ حيث يبدو فعلاً في الليل براقًا باللون الأحمر بسبب غنى تربته بأكسيد الحديد، أو ما يعرف بصدأ الحديد.

الحَق في الحُب

وقفت رئيسة جمعية (الحق في الحُب) وسط قاعة المحكمة، أمام تلك الشاشة العملاقة التقليدية التي يتوسطها القاضي ومستشاريه، في تقليد بقي حتى بعد 291 سنة من آخر تعديل قضائي غيّر غالب شكليات المحاكم في طرابلس الغرب، لكنه حافظ عن عمد على روح المحكمة التقليدي. وحينما أعطى لها القاضي إشارة بدء مرافعتها، ضغطت بسبابتها اليمنى على السماعة الصغيرة اللاسلكية الناقلة لصوتها، التي وضعتها منذ دقائق بداخل أذنها اليمنى، ثم بدأت وكأن المرافعة كانت تكملة لحديث سابق:

ـ «نعم، سيدي الرئيس، حضرات المستشارين، لا أنكر أنكم صنعتموني وصنعتم الكثيرات مثلي، لكن ماذا عن أبنائكم، أصلابكم كما تقولون؟ ألستم أنتم أيضًا -من الناحية التقنية الصرفة- صانعوهم؟ ثم ألم يقرر القانونيون منذ عشرات السنين أن يجتثّوا نبتة العنصرية الضارة التي لطالما أضرت بسكان هذا الكوكب، بل لطالما أضرّت بكم أنتم البشر منذ أن استفاق أجدادك، سيدي الرئيس، ذوو البشرة القاتمة، على حقوقهم في أن يعيشوا على الأرض بمساواة تامة مع ذوي البشرة البيضاء؟ ألم نقرر أن باقي كائنات هذه الأرض لهم ذات الحق؟

وأنا وأمثالي! ألسنا ضمن هذه الكائنات التي شملتها قوانين المساواة منذ عقود؟

سيدي الرئيس، لا يَغُرّنك شكلي الخارجي أو أناقتي أو تسريحة شعري، أود تذكيرك بأنني من طراز (آل 3641) المطابق للجنس البشري في الشكل والسلوك والذكاء، فاستلم -استحقاقًا لذلك- الكثير من المهام الإنسانية الحساسة في الكثير من دوائر صُنع القرار والإنتاج في مجتمعنا، ونلنا بعد

سنوات من الكفاح الحق في العمل والتملك واتخاذ القرارات الفردية في إطار القانون العام الذي يشملكم أنتم أيضًا. صار من حقكم سجننا، بل وإعدامنا إذا ما انطبقت علينا مواد القانون العام في ذلك»

هنا تململ القاضي ومستشاراه، التفت إليهما وتمتم ببعض كلمات لم يسمعها غيرهما، ثم عمل على تنويهها بإيماءة من رأسه، ورفع سيف كفه إلى أعلى بأهمية تجاوز سرد هذه البديهيات التي يعلمها الجميع، غير أنها قاطعته بقولها:

ـ «عذرًا سيدي الرئيس، أدرك بداهة ما أقول، غير أنني أوجه حديثي لموظفة توثيق حوار هذه المحكمة بغرض توثيقه للأجيال القادمة. سيدي الرئيس، حتى لا يختلط الأمر عليهم بين نوعك ونوعي، أريد اعتبار هذه الفقرة شهادة مادية مرئية ومسموعة، وأسباب لمطالبنا في حقنا للحصول على الحقوق التي سنطالب بها في نهاية هذه المرافعة، سيدي الرئيس»

رأت إيماءة رأس ويد القاضي بأسلوب متأفف، وكأنه يسمح لها بالاسترسال لكن يتمنى الاختصار، فأكملت قائلة:

ـ «مع احترامي سيدي الرئيس، حقًا بماذا نختلف عنكم؟ ألسنا نعمل مثلكم بدوام كامل لإنتاج كل ما نراه حولنا وعلينا وما بداخلنا؟ أتنكرون أننا نعمل حتى ساعات عديدة أكثر منكم؟ هل تعملون أنتم 24 ساعة مثل بعضنا في مواقع حساسة في أمن الدولة؟ ومع ذلك تقولون إننا عبيد بلا روح! وماذا في ذلك!؟ فرغم الألم الذي نحتمله بصمت حينما نسمع ذاك القول نتذكر أن أجدادكم قالوا ذات الرأي لأجداد بعضكم الآخر، مثل أجداد رئيس محكمتنا الموقر هنا! لكننا لسنا عبيدًا بلا روح إن شئتم الدقة التقنية، فنحن لا نمتلك روحًا وإنما ذات الحس لديكم، ولا تقولوا إنكم أنتم من صنعه، بل صنعه الذي صنع هذا الإحساس فيكم! لا تنكروا هذه البديهة! فنحن لسنا نسخًا

جامدة بل امتداد لكم، لا نختلف عن أبنائكم الذين تُنتجونهم من صلبكم إلا قليلًا، بل نحن أقرب إلى البشر المُصَنَّع الذين تصنعونهم مخبريًا من لحم ودم. فلماذا لا ترونا مثلهم؟ ألأن هيكلنا الداخلي معدني صلب؟ وماذا عن هيكلكم أنتم؟ أليس حجريًا صلبًا؟ تذكروا أن البوتاسيوم والكالسيوم والفوسفور هي أحجار سطح وباطن الأرض، مثلما هو أصل التيتانيوم والزركونيوم الذي يصنع هياكلنا، تذكروا أن بشرتنا ليست خلطة لدائنية كما يردد الكثير من الجهلة المتخلفين، وإنما هي لحم بشري حي لا يختلف في تركيبه ونسب عناصره عن بشرتكم، إذ جاء من ذات مصدر بشرتكم، مُورِّثات بشرية نعم! أليس هذا تطابقًا آخرَ بيننا!؟

أبعد كل هذه المساواة ترفضون أن تُحب مثيلاتي أمثالكم؟ لماذا؟ هل حُبنا يضر بالإنتاج الصناعي العالمي؟ أيضر بأمننا القومي بأكثر من ادعاءات حُب جاسوسات البشر في الماضي؟ أم أن حُبنا يزيد من الأمن والإنتاج العالمي؟

معذرة، سيدي الرئيس، حضرات المستشارين، على صراحتي التي أريد تسجيلها كاملة هنا. ألا ترون أن حُبنا أرقى وأنظف حتى من حُب زوجاتكم مع احترامنا لكل المحترمين؟ إن حبنا هو خُلاصة تجارب ملايين الجدات اللاتي غادرن هذه الحياة، وأجسادنا مبرمجة لتلافي أغلب -إن لم نقل كل- أخطائهن! بل ثبت أن لدينا حسًا إبداعيًا لا تمتلكه زوجاتكن وأخواتكن، وخبرة تراكمية معدل تطورها أسرع بكثير منهن، هكذا صنعتمونا أنتم وهكذا سنعيش.

هي فقط خاصية الإنجاب التي تمتلكونها وتعتقد زوجاتكن أنهن بها يتفوقن علينا. ورغم أنني أدرك أن هذه هي من الجدليات القانونية المستمرة حتى اللحظة في الإعلام والمراكز البحثية والجلسات الخاصة البعيدة، لكن ألا ترون أن خاصية استنساخنا هي أرقى من ميزة إنجابهن؟ نحن بهذه الميزة لسنا مضطرات إلى استقبال شيء من عرقكم ولعابكم وسوائلكم، ولا انتظار

الوقت الطويل لاستقبالها واحتضانها لإعادة إنتاجها بعد 9 أشهر؛ نحن أرقى وأقل تكلفة وأسرع بكثير بخاصية الاستنساخ الذاتي. لا تقولوا إن ذلك لن يحدث إلا بموافقة أخصائيي مختبر الاستنساخ واستعداداته وإمكانياته. ألا ينطبق ذلك أيضًا على الشروط التي تُطَبّق عليكم من توفر الطبيب الحاذق والمستشفى الراقي المجهز بالمعدات المناسبة لإتمام عملية ولادة طفل بشري سليم؟

بل أننا نتفوق على العاقرات من قريباتكم عذرًا؛ ففي الوقت الذي يستحيل عليهن ولادة أطفال من أرحامهن، لا يعرف نوعنا هذه العقبة! فاستنساخ أطفال يحملون صفاتنا وصفات أزواجنا قائم ما دامت المختبرات والمراكز التي تصنعنا قائمة، وفي جميع الأحوال، تبقى خاصية تبني طفل بشري متاحة أمامنا أسوة بأي امرأة بشرية أخرى إذا شاء الزوج ذلك، ونتفوق مرة أخرى في هذه الميزة؛ إذ تمت برمجتنا على معاملة أطفال التبني معاملة أطفالنا نحن، ويمكننا بسهولة إسقاط معلومة التبني -بل وحتى أصله البشري- تمامًا من ذواكرنا إذا شاء الزوج ذلك وقَبِلَت الزوجة من نوعنا طبعًا استخدام هذا الحق. بخلاف سلوكيات زوجات الأب البشرية طبعًا التي لا تخفى عليكم!»

هنا قاطعها القاضي بكلمة قصيرة، لكنها كانت تقليدية معتادة، قوية وواضحة: «طلباتك!»

ـ «سيدي الرئيس، أطلب ضرورة الإسراع في سن قانون جديد يبيح لنوعي- رجالًا ونساء- أن يكون لهم ليس فقط الحق في إقامة علاقة حُب عاطفية من الجنس الآخر، بل وضرورة احترام هذه العلاقة قانونًا دون سخرية ولا انتقاص، وتَحَمّل مسؤوليات تبعاتها القانونية. أطلب سيدي الرئيس، تشريعًا قانونيًا يحظر السخرية من حُب إنسان من نوعي -ذكرًا كان أم أنثى- من إنسان بشري، وتشريعًا يبيح لهما الزواج إذا شاءا، وتَبَنّي أو نسخ أطفال حسب رغبتهم. هذا إذا شئنا أن يستمر التعاون بيننا وبين باقي مخلوقات

هذا الكوكب، ما دام الذكاء والشعور الإنساني والعمل الإنتاجي لحاجاتنا جميعًا قد صارت مشتركات بيننا، بما فيها الأبقار والدجاج والتماسيح.

فإذا أردنا الحديث عن المساواة علينا ألا نهمل مطالب قطاع عريض وقوي من مخلوقات الأرض النشطة الفاعلة اليوم، أي نوعنا الذي تمثله جمعيتي، سيدي الرئيس»

ما إن أنهت حديثها حتى صاح القاضي:

ـ «رُفِعَت الجلسة!»

لتنقطع صورة الشاشة، وتظهر محلها الجملة:

ـ «الحُكم بعد المداولة. نأمل الاتصال بكاتب المحكمة لمعرفة موعد جلسة الحُكم»

وما هي إلا دقائق حتى خرجت من القاعة لوحدها، في انتظار إعلامها بجلسة صدور الحكم.

قَتْل.. أم انتحار؟

جلست لوحدي في غرفة التحقيق الضيقة، مُقابل باب مدخلها الوحيد. كانت مربعًا صغيرًا بالفعل، جدرانها بطاطية اللون، ولا يوجد شيء مُعلق عليها إلا ذلك المستطيل العملاق الزجاجي الأسود الذي يحتل مركز الجدار على يميني. كانت أمامي طاولة صغيرة مربعة يقابلها كرسي توأم لكرسيّي. وبالإضافة إلى سلة المهملات البطاطية قرب إحدى أرجل الطاولة، لا يوجد أي شيء آخر تقريبًا؛ هذا هو كل أثاث هذه الغرفة. بالطبع لاحظت ذلك المصباح الأحمر أعلى المستطيل الزجاجي الأسود، ولا شك في أنه عدسة مراقبة وتسجيل ما يحدث هنا.

بعد دقائق دَخَلَت على ما يبدو مُحقِّقَة. كانت قمحية البشرة نحيفة الجسد، ترتدي قميصًا وسروالًا ضيقًا من ذات النوع واللون، إنه الجينز العتيق الذي بالكاد مازال يتذكره أحد ممن عاشوا ثقافة أواخر القرن الحادي والعشرين. كان شعرها أسود غامقًا، غزيرًا وناعمًا جدًا، حتى ظننته عجينة شوكولاتة تسيل من قمة رأسها مرورًا بأذنيها لتتوقف عند كتفيها!

أغلقتْ الباب وراءها بكلتا يديها بهدوء شديد، ثم اقتربت من الطاولة ووَضَعَت جهازها اللوحي عليها. سَحَبَت الكرسي المقابل بهدوء، جلستْ عليه، ثم جذبته مع جسدها النحيل نحو الطاولة بكلتا يديها من أسفله، شَبّكَت يديها على الطاولة بعد أن ارتكزت على سطحها بكوعيّها، ثم دفعت جهازها اللوحي نحوي بيدها اليسرى، بعد أن عكست أعلاه بأسفله، لأرى على شاشته صورتي الشخصية!

ابتسمتُ، وقلت لها: «هذا أنا!»

أجابتني باسمة:

ـ «بل هو نسختك المطابقة لك! التي فُقدَت، ثم وجدناها جسدًا بلا حياة منذ يومين بالقرب من مكتبها هنا على الأَرض»

أجبتها:

ـ «اسمعي يا من لا أعرف اسمها.. أتقصدين أنني هنا لأنكم تتهمونني بقتله؟»

أجابته بهدوء:

ـ «إلى الآن أنت لست متهمًا رئيسًا، وهذه الجلسة هي أقرب إلى جلسة استماع من التحقيق القضائي. إننا في مرحلة جمع الاستدلالات، ونريد معرفة كل ما يتعلق بعلاقتك به»

أجبتها:

ـ «حسنًا، لا أعرفه رغم أنه مُطابق لي. كانت مُجرد صفقة مع الشركة الناسخة؛ حيث استحسنت صفاتي ووجدتها مناسبة للعمل في أول مصنع لتسييل حمض الكبريتيك على كوكب الزَّهْرَة، عَرَضَتْ علي العمل هناك، وحينما لم أقبل بشروطهم عرضوا استنساخ نسخة مني مقابل سعر وجدته مغريًا، وكانت صفقة قانونية مجزية عقدتها في ذلك اليوم»

أجابتني:

ـ «نسختك نالت نجاحًا كبيرًا في عملها، وبعد صدور قانون حق النسخة في ملكية أرباحها -ما دام الربح من نتاج عملها- صارت نسختك من كبار الأغنياء. من تحقيقنا المبدئي ثبت لنا أن هناك تبادلًا سريًا بينك وبين نسختك في أداء ذات العمل الوظيفي، وكان هناك اتفاق سري غير قانوني بينكما لاقتسام الأرباح، ولا نعرف حتى الآن إن كان قد أخل أحدكما بذاك

الاتفاق. على أي حال، في سجلاتنا هناك قضـايا غـار فيها الأصل من النسخة، فابتزها، وحتى قتلها في قضايا أخرى»

بقيت أتمعن في صورة نسختي على جهازها اللوحي دون أن أرفع عينيَ عن شاشته وكأنها لم تقل شيئًا، وبعد أن حاولتُ استيعاب مغزى قولها، نظرت إلى عينيها مباشرة وسألتها:

ـ «وهل أثبتت تحقيقاتكم أننا كنا نتبادل الوظيفة؟ ألم تقولي إنه نسخة طبق الأصل مني؟ كيف عرفتم بهذا الاتفاق إن وُجِد أصلًا. أنا أنفي هذا الزعم على أي حال، لكن طالما أننا متطابقان جينيًا.. كيف عرفت أنه النسخة وأنا الأصل؟»

قالت:

ـ «لم نصل بتحقيقاتنا إلى هذا المستوى من النتائج، نحتاج طبعًا إلى تحليل عينة منك، بعد إذنك»

أجبتها:

ـ «لا مانع لدي، لكن ماذا لو تبين لك أنني أنا النسخة وهو الأصل؟ أقصد لو صحت هذه الفرضية فستكون النسخة حية غير مفقودة، وتتحدثين معها الآن، أليس كذلك؟ هل ستسقط الدعوى في هذه الحالة وكأنها لم تكن؟»

أجابت:

ـ «نعم، أنا أدرك أنني أتحدث مع محامي قدير له خبرة قانونية طويلة، لذا كل ما يمكنني قوله الآن هو أننا سنرى إلام ستُفضِي به نتائج تحليل جيناتك»

قلت لها:

ـ «طيب لنفـرض أن تحليلكم أثبـت حقًا أننـي الأصـل وأنه هو النسخة، وأن

هناك اتفاقًا قانونيًا بيننا -أي عكس ما تظنون- لاقتسام الأرباح، غير أنه فقط غير مُعلن، ألا يحق لي المطالبة بحقي في أرباحه؟»

أجابتني:

ـ «أتقصد أنك تُعطينا الآن سببًا قويًا يؤكد أنك قاتل نسختك؟»

ضحكتُ بحرية وعمق، وكأنني لم أضحك بهكذا سعادة منذ سنوات، ثم أجبتها:

ـ «وهل يعقل أن يعترف محامٍ عجوز بجريمة لم يرتكبها هكذا ببساطة في الجلسة الأولى بلا ضغط منكم!؟ أنا فقط مولع بمناقشة فرضيات ملف الاستنساخ الجديد هذا، المليء كما ترين بالثغرات القانونية التي لا أدري لماذا لم يملأها أعضاء سلطتنا التشريعية حتى الآن!»

بقيت المحققة صامتة تنظر إليّ وكأنها تنتظر مني إكمال حديثي، فعاجلتها باستفسار آخر:

ـ «ألن يكون من حقي وراثة نسختي بعد موتها إذا لم تتزوج وتنجب؟ ألا يحق لي المطالبة بإحالة كل نجاحها وثروتها في الزّهرة وهنا على الأرض لي؟ بل وحتى ملكية شركتها واسمها؟ بل ألا يمكنني ممارسة عملها في شركتها وترؤس الاجتماع القادم لإدارتها؟ أتعطوني الإذن في ذلك الآن؟ فحتى ولو أثبتّم أنني قاتله -وأوكد لك إنني لست كذلك- فمن سيرث نجاحه وأملاكه غيري؟؟»

أجابتني باسمة:

ـ «يبدو أنك مهتم بثروته أكثر بكثير من اهتمامك بمصيرك!»

أجبتها:

ـ «لأنني أولًا واثق من براءتي، مولع بكشف ضعف منظومتكم القضائية في التعامل مع هذه الدعاوى الجديدة وما أكثرها هذه الأيام دون اكتراث من الهيئة التشريعية لضبطها»

وقبل أن أسمح لها بإجابتي عاجلتها بسؤال آخر:

ـ «وما دمتم تقولون إنه نسخة مني ومطابقة لي 100%، لماذا تعتبرون مواد القتل العمد هي التي تنطبق على هذه الدعوى؟ لماذا لا تنطبق عليها مواد الانتحار مثلًا؟ لنفرض أنكم أثبتم أنني قاتله -وهذا ما أنكره بالطبع جملة وتفصيلًا- لماذا لا تعتبرون الدعوى حالة انتحار؟»

لم تقل المحققة شيئًا، بقيتْ في الاستماع طوال الوقت تُدَوِّن من حين لآخر ملاحظات على جهازها اللوحي، وبعد أن صمتُّ أنا، نظرتْ إليَّ بعد طول تمعن في شاشة الجهاز، ثم قالت:

ـ «شكرًا لما تفضلت به. كما قلتْ، نحن في جلسة استماع، وإلى حين الانتهاء من التحقيقات نأمل قبولك أخذ عينة من جيناتك لفائدة تحليل المطابقة الآن»

وافقت على هذا الإجراء التقليدي، وبعد أن خرجنا جنبًا إلى جنب من غرفة التحقيق سمعتها ونحن في طريقنا نحو المختبر تتمتم قائلة:

ـ «سأحرص على إرفاق توصيتي الخاصة بكل أسئلتك إلى القاضي، حتى ولو ثبت أنك المتهم الرئيس! حينها آمل أن تتمكن خبرتك القضائية من إبعاد عقوبة الإعدام عنك؛ فالقانون لا يعتبر قتل النسخة انتحارًا حتى الآن.. للأسف!

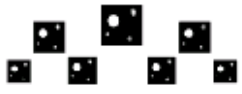

مُرْشِد سياحي على القَمَر

أعمل مُرشدًا سياحيًا على قمر الأرض، حيث أطوف بأعضاء مجموعات سياحية مختلفة حول آثار القمر، التي صارت علمًا منفصلًا عن علم آثار الأرض منذ عقود طويلة؛ فقد كان يختص في بدايته بدراسة كل ما نزل على سطح القمر من خارج جو القمر، لتضاف له لاحقًا آثار مستوطنة البشر الأقدم هنا، قرب قطبه الجنوبي؛ الآثار التي كانت لتُصَنّف قمامة بشرية، لولا أن علم الآثار قد رفع من شأنها كما فعل مع باقي البقايا البشرية! بل وأنشأ لها متحفًا هنا، نصفه في الهواء الطلق، إذا صَحّت هذه التسمية في جو القمر الخالي أصلًا من الهواء!

الآثار القمرية اليوم متناثرة بالمئات في أنحاء القمر، غير أن أثمنها بالنسبة لتراث واقتصاد القمر هي بقايا القمر الاصطناعي السوفييتي (لونا luna2)؛ حيث حاز على لقب أول مركبة أرضية (مأهولة أو غير مأهولة) تهبط بنجاح على سطح القمر في 1959/09/13، تبعتها فيما بعد عشرات المركبات المشابهة، التي يُعد بعضها جزءًا نفيسًا من أقدم آثار القمر.

وكما ينص قانون آثار القمر (المشابه لقوانين الآثار الأرضية)، تُعد أولى المواقع التي هبطت عليها المركبات المأهولة وانطلق منها رواد على أقدامهم هي الأخرى مواقع أثرية، لذا نُصبت عليها فيما بعد شواهد خاصة تُعَرّف بها وتشرح أهميتها، أولها وأهمها طبعًا موقع هبوط العربة القمرية (إيجل Eagle) ، ضمن بعثة (أبولو Apollo 11)؛ لأنها أولى المركبات الأرضية المأهولة التي هبطت على القمر، بل إن حطامها وقاعدتها السليمة التي تركها روادها هنا بعد أن عادوا إلى الأرض تُعد من أنفس آثار القمر اليوم لذات السبب.

ونظرًا لغياب الظواهر الجوية التي يمكن أن تمحو الآثار على سطح القمر، كالرياح والأمطار، فإن آثار الأقدام والأيادي تبقى هنا محفوظة كما هي، أشهرها آثار قدمي مهندس الفضاء الأمريكي (نيل أرمسترونـج Neil Armstrong] اللتان كانتا أول الأقدام البشرية التي وطأت سطح القمر؛ فقد أحيطت بمكعب زجاجي كبير كُتب عليه اسم صاحبها وتاريخ نشوئها (1969/07/21)، لتصبح إحدى أشهر آثار القمر خارج متحفه، كما تم بذات الطريقة تغطية اسم (تريسي Tracy) الذي نقشه على تربة القمر بإصبعه (يوجين سيرنان Eugene Cernan) آمر بعثة (أبوللو17) في خريف 1972.

أما بقايا ما عُرِفت باسم (طرود أبولو) التي رافقت كل بعثات (أبولو) المأهولة الأولى، فقد كانت عدة أجهزة قياس وتحليل، لدراسة سطح القمر، وإرسال نتائجها عبر محطة الإرسال القديمة الصغيرة التي مازالت بقاياها هنا كذلك. هذه الأجهزة في عمومها كانت مولدات صغيرة ومختبرات لدراسة تركيب جو القمر وقياس صدمات النيازك وجاذبية القمر، وأجهزة دراسة جيولوجية وبيئة القمر الأولى، من أجهزة رصد الزلازل فوقه وأولى الخلايا الشمسية التي زودتها بالكهرباء، وأجهزة إرسال معلوماتها التلقائية لاسلكيًا من على سطح القمر: عاكس أشعة الليزر الأول الذي قاس لأول مرة المسافة بين الأرض والقمر بدقة. الأعلام التي نُصبَت هنا في أوائل سبعينيات القرن العشرين صارت آثارًا بيضاء ناصعة الآن بعد أن محت الأشعة فوق البنفسجية ألوانها الأصلية.

كُرَتا الجولف اللتان ضربهما في فبراير 1971 من فوق سطح القمر خامس إنسان مشى على الأرض الأمريكي من بعثة (أبوللو 14)، (ألان شيبرد Alan Shepard)، أضيفتا إلى محتويات متحف القمر بعد العثور عليهما مؤخرًا، أما حطام المركبة اليابانية (هايتن Hiten) فقد اكتسب أهميته

الأثرية بصفته أول أثر ياباني موجود على القمر منذ هبوطه يوم 1993/04/10، إضافة إلى كونه أول مركبة أرضية تهبط على القمر من غير مراكب الاتحاد السوفييتي السابق والولايات المتحدة الأمريكية السابقة، كذلك هو حال المركبة (سمارت Smart 1)؛ فقد دخلت التاريخ في 2003/09/03 بصفتها أول مركبة أوروبية تتواجد على القمر، والمركبة (ميب (MIP) صارت أول مركبة هندية تهبط على القمر في 2008/11/14، والمركبة (تشانج آه Chang 1) صارت أول مركبة صينية تتواجد على القمر منذ 2009/03/01.[6]

أما أنفس آثار تراث سكان القمر أنفُسهم، فهي أولى قبورهم هنا بطبيعة الحال، أي قبور أولئك المغامرين الأوائل الذين نستغرب اليوم حماستهم وشجاعتهم -حتى لا نقول تهورهم- للإقامة هنا دون كل تلك الأجهزة والمعدات الحديثة التي نملكها نحن جيل الأحفاد. وفي ذكرى هؤلاء المغامرين الأوائل أنشئ متحف القمر الوحيد حتى الآن بشِقّيه المغلق والمفتوح، والذي عادةً ما أبدأ جولتي من داخله، مُذكِّرًا أجيال الحاضر والمستقبل بالجهود الاستثنائية التي بذلها أولئك الرواد من أجل تيسير حياتنا نحن جيل الأحفاد في هذا المكان، الذي كان ليكون بلا حياة لولا تضحياتهم.

في هذا المتحف يتعرف السياح -عبر صور وخرائط وأفلام- على تلك القطع المتناثرة التي وُجدت على سطح القمر، ووجب حفظها في متحف مغلق حماية لها من السرقة والتلف، وتفاصيل ما سوف يشاهدونه في الجولة الميدانية المغلقة التي اختاروها قبل أيام من قدومهم من بين الجولات المتنوعة التي تقترحها شركتي على موقعها الرسمي، والتي لا تتجاوز فترة نصف يوم أرضي لكل منها؛ إذ يستحيل رؤية كل آثار القمر في جولة واحدة، ولا حتى في 10 جولات! لنُحدد بعدها جماعيًا في جلسة بمقهى المتحف نقطة استراحة الغداء التي يفضلونها بين مرحلتي الجولة، مُذكرًا إياهم في نهاية كل

جلسة وقبل انطلاق جولتنا الميدانية بدقائق بالتوصية الدائمة المذكورة بحروف كبيرة في مطوية شركتي وفي موقعها، وهي أن يَتَحمّل كل عضو في الفريق مسؤولية حمل حصته الشخصية من مثلث الماء والطعام والطاقة الذي لا يمكن الاستغناء عنه على القمر؛ فلا وجود طبعًا لمقاهي ولا دكاكين في طريقنا، ولا يمكن تحميل العربة بأي وزن زائد تفاديًا لتجاوز تكاليفها المدفوعة، إضافة إلى تعذر العودة إلى المخيم متى بدأت الجولة؛ لأن ذلك يعني إلغاءها، وهذا ما لا يمكن لشركتي أن تتحمل عواقبه طالما أن باقي أعضاء الفريق قد دفعوا مبالغ باهظة للقدوم هنا، بل بعضهم يعتبرها رحلة العمر التي قد لن يتمكن من تكرارها.

غير أنني عهدت تفاوتًا كبيرا في ثقافات وذكاء واستيعاب أعضاء مجموعاتي السياحية كما هي عادة الناس في كل زمان ومكان؛ إذ أنهم قادمون من بيئات ودول مختلفة، ولا يغرنك ثراؤهم المالي الكبير الذي يميز وجودهم هنا عن باقي البشر؛ إذ بعضهم سريع البديهة، حتى أنه يُعينك على عبء متاعب الجولة، وبعضهم لحوح، أو ممل، أو متذمرات طوال الجولة لا يعجبهن شيء فيها! غيرهم وجدته على درجة من الذكاء بحيث يعجز عن فتح غطاء حاوية الماء التي توزعها شركتي مجانًا على سياحنا!

لهذا كثيراً ما صادفت أحداثًا طريفة ومزعجة، بل ومربكة أحيانًا طوال العشرين سنة الماضية من عملي كمرشد هنا، منها ما حدث يوم امتطيت صحبة ثلاثة سُيّاح من شمال أفريقيا السيارة (نيسان باترول لونار Nissan Patrol Lunar) القمرية المغلقة. (نعم فاليابانيون لم يصنعوا أفضل السيارات على الأرض فقط، بل نافسوا غيرهم حتى فوق سطح القمر، فكانت هذه السيارة كجدتها الأرضية مريحة مكيفة رغم أنها مخصصة للرحلات الصحراوية والأراضي الوعرة).

فـي هـذه الجولة سألني أحدهم مرتبكًا جزعًا قلقًا من امتـلاء ذاكرة صوارته

بالصور قبل حتى إتمام نصف الجولة، شاكيًا من أنه لا يمكنه قبول دفع كل هذه المبلغ الطائل لمجرد التقاط 11 صورة فقط! سألته:

ـ «لماذا لم تفرغ ذاكرتها قبل انطلاق الجولة بقليل!؟ ففي حاسوب مكتبي الذي تركناه في المخيم سعة كافية لذلك!»

أجابني ببساطة:

ـ «نسيت!»

فنصحته:

ـ «أرسل ما بها من صور إلى ذاكرتك الشخصية على النت عبر حتى وسائل الواي-فاي أو البلوتوت القديمة»

فأجابني بعد دقيقة:

ـ «حتى الطاقة نفدت من صوارتي!»

في مثل هذه الحالات النادرة أجد أن الحلول الإنسانية البدائية لا التقنية هي الحل الوحيد والسريع، فابتسمتُ له وأعطيته نضيدتي الاحتياطية، محذرًا إياه أن هذا هو كل ما لدي إلى حين انتهاء الجولة!

غير أنه في جولة الأمس، أثناء جلسة الاستراحة، تنهد أحدهم ثم قال:

ـ «أتمنى لو بإمكاني نزع خوذتي هنا!»

سألته مندهشًا:

ـ «ماذا!؟ أتريد الانتحار على مسؤوليتي!؟ ألا تعرف أنك ستموت بعد دقيقة مختنقًا؟»

فأجابني باسمًا:

ـ «بالتأكيد أعرف! أنا أعمل غواصًا في بحار الأرض وأعرف معنى الاختناق بعيدًا عن الهواء! لنقل إنني سأضع خرطوم الهواء في فمي وسأغلق أنفي بالمشبك الخاص بالغوص لدقيقة! لا تقلق! أردت فقط الاستمتاع بالهدوء التام الذي لا شك في أنه يملأ المكان هنا، خاليًا من أقل درجات ضجيج الأرض، كما بودي التمتع بشهقة واحدة على الأقل من هذا الجو لأنه لابد وأن يكون مثال للنقاء التام الخالي تمامًا من أي ملوثات».

قهقهت قليلًا ثم قلت له:

ـ «أتعرف ماذا ستشم؟ أتعرف رائحة جو القمر؟ ستشم رائحة البارود![6] هكذا هي رائحة جو القمر لو أمكننا استنشاقه.. بلا اختناق طبعًا!»

وبينما انهمك بعضهم في صنع عدة نكات ساخرة من هذه الحقيقة، يأتنيي أحدهم -كان يجلس بعيدًا عنا- جزعًا ويصيح في وجهي:

ـ «نسيت حصتي من الماء على طاولة الاجتماع الذي عقدناه في المتحف قبل خروجنا للجولة بدقائق!»

فصرخت فيه قائلًا:

ـ «ألم أحثكم على ضرورة الحرص على حمل مائكم وغذائكم ومصادر طاقتكم معكم!؟»

أجابني كالعادة:

ـ «نسيت!»

فلم أجد إلا أن أقول له بكل صراحة:

ـ «للأسف مشكلتك هذه لا يمكن لا أنا ولا شركتي ولا حتى أي تقنية متوفرة اليوم أن تحلها لك في هذا المكان! فلا أحد يمكنه ولا حتى يُسمح له بأن

يتنازل عن حصته من الماء في هذا الجو المقفر البعيد عن المستوطنة البشرية الوحيدة هنا، ليس لك الآن إلا ذلك الحل الوحيد الذي اعتمده سكان الصحراء العربية قديمًا في مثل هذا الظرف... الصبر بالصوم!»

في ذلك اليوم تذكرت تلك الحكمة البشرية العتيقة (الحرص لا يكلف شيء، والإهمال باهظ الثمن!)، غير أنني أضفت عليها في تقرير الجولة:

ـ «..خصوصًا حينما تكون في جولة سياحية باهظة الثمن.. على سطح القمر!»

(6) كل آثار القمر المذكورة في ذاك الجزء مستندة إلى معلومات ورحلات حقيقية.

(6') معلومة حقيقية كذلك.

ورطة تشكيلية!

رَحَل الزوج والتحق الأبناء بجامعاتهم خارج الوطن، فكان عليّ الاستعانة بخادم آلي كعادة الكثيرين من مُقتدري اليوم، ليُعينني على حياتي، بين حاجياتها الضرورية وعملي الوظيفي في شركة إنتاج فني؛ ليتاح لي الوقت الكافي لإكمال الكثير من لوحاتي المتناثرة في أركان مرسم بيتي الصغير.

لهذا اخترت طراز (طلبية خاصة) يمكنه أن يقوم -إضافة إلى التنظيف- بتصنيع ألواني بدقة، وتنظيف أدواتي بدقة وسرعة بعد الانتهاء من عملي حفاظًا عليها من التلف، وتأطير أعمالي بعد جفافها، مع تقديم المساعدة اللازمة في قاعات مَعَارضي الشخصية، من تعليق للوحات الضخمة والحرص على عدم سرقتها أو الإضرار بها في غفلة مني أثناء العرض، إضافة إلى توزيع المطويات والمرطبات على الضيوف.

كان لابد لي من دخول عالم الآليين الجدد متعددي الوظائف إذا أردت ليس فقط منافسة أندادي، بل وملاحقة سرعة أدائهم ودقتهم التي صارت التقنية الإلكترونية جزءًا منها.

غير أنه بعد أَشْهُر من استعمالي له، أعلمني وكيل الشركة أنهم يخططون لإضافة ترقية جديدة له؛ بحيث يكون مستشارًا تشكيليًا إضافة إلى خدماته المعتادة، ضمن مشروع جديد لهم يحاولون فيه إدماج الآليين في عالم التشكيل؛ لأنه ببساطة بقي بعيدًا عنه طوال القرون الماضية! قاصدين في تجربتهم هذه إبعاده عمدًا عن برودة المُبرمجين ومُختبراتهم، وتقريبه إلى حرارة باطن التشكيل وألوانه، حتى أنهم اختاروا تشكيليات أكثر من التشكيليين في هذه التجربة؛ لإدراكهم بأن المشاعر العاطفية تختص بها الروح الأنثوية أكثر، ولهذا أرادوه أن يعيش معي لا معهم هم في هذه

التجربة؛ من أجل فَهْمٍ أعمق منه لأسرار التشكيل. ولأن تجربة هذا الترقية على خادمي مجانية، قُبِلت بها بسرور؛ من باب الفضول أولًا، ولأستفيد أنا أيضًا من حواراته الفنية المفترضة بعد أن ركنت إلى الخمول الأكاديمي منذ أن تخرجت في الجامعة.

وكما توقعت، بدأ يسألني أسئلة بديهية أولية حول ماهية التشكيل وفائدته، فحينما كان يرى لوحة من لوحاتي الواقعية المعلقة على جدران بيتي أو حينما أتصفح صفحات أحد كتب الأعمال كلاسيكية في مكتبة بيتي بقربه كان يسألني:

ـ «ما الفارق بين الرسم والتصوير؟ ولماذا تجتهدون في رسم وجه وتلوينه، ودفع المبالغ الكبيرة في ألوانه، مع أنه بإمكانكم فعل ذلك بِصَوّارة في كسر من الثانية!؟ ألا يفترض أن يكون الرسم قد توقف مع تطور التصوير الشمسي!؟»

أجبته بأن قيمة اللوحة بيد التشكيلي أثمن وأبرع مما تلتقطه الصورة، ليرد عليّ قائلًا:

ـ «إن البرامج الحاسوبية الجديدة يمكنها جعل الصورة وكأنها لوحة زيتية أو مائية.. أو بالقلم إن شئت، في كسر من الثانية، فلماذا لا تستثمرين هذه الميزة بدل إضاعة وقتك ومالك؟»

ولأنني أدرك أنه مجرد آلة في طور التعلم، كنت أبتسم أحيانًا، وأحيانًا أوافقه على أمل أن يسكت! لكنه في الأيام التالية بدأ يسألني أسئلة أكثر خصوصية! فبعد يوم مرهق أمضيته في مكتبي مع زبائن جُدد، نهضت مساء وتوجهت إلى مرسمي لأضع الخطوط الأولية للوحة جديدة، فجاء مسرعًا من المطبخ يحمل قدح قهوتي كالمعتاد، ثم وقف إلى جانبي وسألني:

ـ «لماذا لا تتركيني أقوم بما تعملين؟ يمكنني تنفيذه في دقائق؛ أنا خادمك

وهذه هي وظيفتي التي كلفتك ثمنًا باهظًا!»

أجبته:

ـ «حينها لن يكون عملي.. وإنما عملك!»

رد قائلًا:

ـ «وما الفرق؟ أليس هدفك هو تنفيذه؟ على أنه يمكنني حتى تقليد توقيعك عليها بتطابق تام!»

هنا جزعت وأجبته نافية:

ـ «لا.. لا.. لا.. هذا يُعد تزويرًا يا عزيزي، ولا أريد أن أتورط فيه!»

فرد عليّ بإجابة عجزت عن ردها:

ـ «إنه مجرد نسخ ولصق لتوقيعك الشخصي، ثم كيف يكون تزويرًا وهو يحدث تحت عينيْك وبموافقتك؟ حسنًا، وبماذا سَنَصف صديقك التشكيلي الذي فَقَد يده ويرسم الآن بيد آلية؟ هل يده تُزَوِّر أعماله؟ إنها تأتمر بأمره، أليس كذلك؟ فلتعتبريني يدك الآلية إذًا التي تأتمر بالفعل بأمرك!»

تَهَرّبتُ من الإجابة، وطلبتُ منه تكملة حوارنا في يوم آخر؛ لأنني أريد شرب قهوتي في خلوة.

في مساء اليوم التالي، وبينما كنت أحرك فرشاتي العريضة عموديًا مالئة مساحات لوحة الأمس بألوانها، اقترب مني في صمت، وخطف علبة اللون البنفسجي من على المنضدة الدائرية القصيرة التي أضع عليها أدواتي، قرب حامل لوحتي الضخمة، ليحملها قرب يدي في رشاقة لذيذة، ثم قال لي:

ـ «لماذا تُضيعين وقتك بالساعات في تلوين عمل بينما أنا موجود؟ ألا تتذكرين كيف أن عمالقة الفن الكلاسيكي كانوا يكلفون طلابهم لملء

لوحاتهم بالألوان بعد تخطيطهم لها بإشراف وتعليمات منهم؟ يمكنني أن أقوم لك بهذه المهمة، على الأقل لتنشغلي بأعمالك الشخصية الكثيرة المؤجلة في البيت، التي طلبتِ مني عدم الاقتراب منها!»

حسنًا ها هو خادمي يتهمني الآن بالكسل! لذا صارحته بأنني أجد متعة بل ونشوة في تنفيذ أعمالي بنفسي؛ لأنها تطلق الكثير من زفرات الألم والإحباط والتوتر والضغط عن نفسي بعد يوم عمل طويل، فأربكني بلهفته على صحتي ورجائه في أن أوافق على جلب الطبيب أو الذهاب إلى الصيدلية ليجلب لي الدواء المناسب. حاولت إقناعه بأن الرسم والتلوين هما علاج كذلك، فتساءل:

ـ «إذًا، لماذا لا أجد أدواته متوفرة في الصيدليات!؟»

بينما كنت أهم بالخروج من البيت في صباح اليوم التالي، حاملة إحدى لوحاتي لعرضها على زبون، اقترب مني وأخذ اللوحة كعادته يريد حملها إلى السيارة، لكنه تأملها قليلًا هذه المرة، ثم سألني سؤالًا جعلني أدْرِك أن تطورًا كبيراً في ذكائه قد حدث:

ـ «سيدتي، هل يمكن اعتبار الرسم محاولة لتجسيم حلم؟ أم أفكارًا عابرة؟ أقصد حينما تقتطعين ساعات من وقتك الخاص للجلوس هنا ماذا تفعلين بالضبط؟ أنت لا تكتبين أفكارًا أو وصايا، ولا حتى ترسمينها، أنا أرى خطوطًا ملونة شبه عشوائية، لم أفهم ماذا تفعلين بها، إلا إذا كنت تحاولين تجسيد أحد أحلامك الليلية، أم هو رد فعل لتفاعلنا مع الحياة؟ حتى ولو، لم أفهم كيف نعرضها على غيرنا بلا شروح؟ كيف سيفهمونها؟»

في ذلك اليوم وافقته على أسئلته الأولى، فهي تصف حقًّا بعض أعمالي، لكنني لم أعرف بماذا أجيب سؤاله الأخير! فقلتها له صراحة بأني قد تأخرت كثيراً عن عملي!

ثم تعمقت أسئلته، فتمحورت في المدة الأخيرة حول نظرية الألوان، فحينما عدت في أحد الأيام للبيت وجدته واقفًا أمامه ينتظر عودتي بلهفة، وحينما توجهت إلى الحَمَّام سارع إلى طاولة المطبخ ووقف بجانب كرسيي المفضل، ثم سحبه ما إن رآني قادمة في إشارة تدعوني إلى الجلوس لتناول غدائي، ليقف بعدها بأدب على بعد متر مني، مقابل لوحة الأسماك التي أنجزتها أيام الجامعة، لكن ما أن غرفت اللقمة الأولى حتى سألني:

ـ «سيدتي، بماذا نفسر جمال الأسماك الملونة؟ من الذي لونها أصلًا؟ هل هي نتاج مختبراتكم الجينية؟ لماذا هي ملونة بهذا الجمال الباذخ؟ أستغرب كيف أن الكثير منها وكأنها لوحات تشكيلية باهرة، فما الغرض من لوحة تشكيلية تسبح في البحار المالحة بعيدًا عن دور العرض والبيع؟ ومن يقتني سمكة مزخرفة هذه الأيام؟ ألا تقتنون الأسماك إلا لأكلها؟»

أجبته بارتباك:

ـ «أسئلتك الأولى عميقة جادة حقًّا، غير أنني ما زلت حائرة لم أجد لها إجابة حتى الآن، أما عن سؤالك الأخير فهناك من يقتنيها للزينة، ليستمتع بجمال ألوانها لا لأكلها!»

فعاجلني بسؤال حرت في إجابته هو كذلك:

ـ «أيعقل أن نسجن كائنًا حيًا ضعيفًا لمجرد التفرج على لباسه؟ هل تقبلون أنتم أن يسجنكم كائن متطور لمجرد أن يتفرج على بشرتكم ولباسكم؟ أيعقل أن نعتبر هذا تسلية!؟»

بعد طول إصغاء وتدبر في تحليله هذا الذي أسمعه لأول مرة أجبته: «نعم، أنت محق في ذلك!»

ثم رجوته أن يسمح لي بقيلولة خالية من الأسئلة، حيث عليَّ الاستعداد

بعدها لحضور حفل افتتاح معرض إحدى صديقاتي التشكيليات.

في أحد الأيام، وبينما كنا نتابع معًا فيلمًا دراميًا على شاشة التلفاز سألني بما تطابق مع معتقدي الشخصي من مكان وقوفه خلف الأريكة على يساري:

ـ «أستغرب سيدتي من ذكوركم الذين ينجذبون لفتيات يضعن كحلًا وأحمر الشفاه، وبعضهم ينجذبون إلى ألوان معينة من لباسكن كذلك، فلماذا يحدث ذلك؟ ما علاقة الألوان بثقافتكن وشخصيتكن؟ أيعقل أن يتم تقييمك على أساس لوني أكثر من روحك وأفكارك؟ أليس من السخف أن ينجذب ذكر إلى أنثى بذات الطريقة التي تنجذب بها النحلة إلى ألوان الزهور؟»

أجبته:

ـ «نعم أنت محق في كل ما تقول، لا يجب على الألوان أن تَعْمي أبصار الذكور!»

لكنني ندمت على هذه الإجابة فيما بعد! إذ يبدو أنه لم يدرك مقصدي منها، ففهم فهمًا سطحيًا يتناسب ودوائره الإلكترونية، إذ انهالت عَلَيّ أسئلة تربط بين البصر والألوان لم أجد لها أي إجابة:

ـ «سيدتي، بماذا نُفسر عالم العيون التي لا ترى غير اللون الأبيض والأسود ودرجاتها؟ صعب عليّ تقييمها كَعَيب، لأن هؤلاء يرون أشياء في عالمنا لا ترونه أنتم، لذا لا يمكن اعتباره عيبًا، صح؟ وبماذا نفسر عدم قدرة بعض العيون على رؤية بعض الألوان؟ هل الخلل فيها؟ أم في الفنان؟ أم لحكمة إلهية ما زالت مجهولة؟»

بعد نحو أسبوعين بدأت أواجه بعض الصعوبة في متابعة سيل أسئلته، كما اكتشفت أنني ببساطة لا أعرف إجابة الكثير منها، فكنت أوافقه في بعضها

على مضض، رغم أن هذا يخالف تعليمات الشركة التي ألَحَّت علي في ضرورة أن أجيبه على كل أسئلته بغض النظر عن دقة الإجابة، فليس المهم دقة الإجابة بقدر ما يهمهم تطوير ذاكرته ومعلوماته وقدرته الحوارية، حيث سيقوم هو فيما بعد بالمقارنة والمفاضلة وترشيح المناسب منها مع الزمن، وهكذا في يوم كنت متوجهة للنوم بعد عمل مرهق سألني:

ـ «سيدتي، أدركت للتو قيمًا إعجازية وثروات إنسانية فنية واعدة عند المتوحدين، فهل للتشكيليين قدرات مماثلة لم ندركها ولم نفسرها بعد؟ أعني ليس كل الناس تشكيليين، فهل يحمل التشكيليون هبة جينية لم ندرس فوائدها التقنية بعد؟ أظن أنه يمكنني دراستها إذا شئت!»

أجبته مندهشة:

ـ «هل ستجعلها أطروحة ماجستير؟؟ هل يُسمح لك بخوض مثل هذه الدراسات؟؟»

سمعت قهقهة مصطنعة منه، ليعاجلني بعدها بسؤال آخر:

ـ «سيدتي، تذكرت شيئًا، هناك أبجديات مكتوبة، وغيرها مسموعة (النوتة الموسيقية)! فهل يمكن اختراع أبجدية للروائح؟ لا أعرف شيئًا عن الشم، لكنني أعرف أن البشر يفرقون بين الزهور والمأكولات وحتى ملابسهم وأحبائهم عن طريق الشم، كما أعرف أن هذه القدرة هي أكبر لدى القطط والكلاب، مما يعني أنه قد تكون هناك أبجدية شمية مصاحبة للون لم يدرسها أحد، أليست ألوان مرسمك لها روائح مختلفة؟»

أعجِبت بتحليله ومدحته، لكنني رجوته أن يتركني أنام فقد فات موعد نومي أصلًا!

لكن بالأمس وجدت أنه لزامًا عليّ أن أضع حدًا لتجاوزه، فبينما كنت بالقرب

منه في ركن ألوان مرسمي أتابعه وهو يُعِد خلطات الألوان التي طلبتها منه سألني:

ـ «أتعرفين أن الألوان مجرد انعكاسات عشوائية للضوء الأبيض على سطوح مادية عاكسة؟ أتدركين أن هناك أبجدية ملونة تكشف هويات العناصر؟ فلكل عنصر انعكاس خاص به وتردد ذو لون خاص به؟ هل سمعت بذلك البرنامج القديم الذي استثمر الألوان لتوضيح طريقة نطق كتاب المسلمين المقدس كما كان يفعل أهل قريش؟ أقصد هل أخطأ التشكيليون فهم مغازي الألوان فبدؤوا يدلقونها كيفا اتفقت نفوسهم المبهمة؟»

هنا سارعت إلى نهره غاضبة:

ـ «لا.. أنا لا أسمح لك بإهانة ذوق التشكيليين!! كيف تصفنا بأننا ندلق الألوان كيفما اتَّفَق!؟ لا.. هذا غير معقول.. هذا لأنك آلة لا تفهم المشاعر!»

فحاول أن يزيد من توضيح فكرته، لكنه زاد الطين بلة:

ـ «أقصد أليس على التشكيليين أن يحاولوا اكتشاف أعماق الألوان طالما أنهم أكثر الناس تعاملًا روحيًا معها؟ أم هم ما زالوا في مرحلة طفولة اكتشاف اللون بعد أن تجاوزوا عمليات كشف الحرف والنغم؟ أليس سخيفًا أن تُباع وتشترى لوحات بالملايين رغم أنها مجرد أصباغ ملونة وزيوت ثمنها أقل من ثمن طلاء جدران هذه الغرفة؟؟»

لم أجبه في تلك الليلة، إذ سارعت إلى وضعه على وضعية الصامت وأنا في أشد حالات الغضب. في صباح اليوم التالي أخذت إذنًا من عملي لأهرول نحو مقر شركته المُصَنِّعة طالبة مقابلة الموظف المختص ببرنامج تطويرهم الجديد هذا، كان شابًا في العشرينيات من عمره، خفيف اللحية أسودها، يرتدي نظارة مايكروسوفت قديمة، مكتبه عبارة عن رفوف على يمينه ويساره وخلفه، كأنها مخزن لعدد كبير جدًا من أنواع مختلفة من الأجهزة التي

أجهلها، بعضها غير مكتمل التصنيع وبعضها نصف مفتوح غطاؤها. كانت المنضدة أمامه تعرض مخططًا ملونًا لإنسان آلي لم ألحظ طرازه. وقف وراء منضدته مبتسمًا يُحييني، سَلَّم عليّ بيده اليسرى، ثم جلس ودعاني للجلوس على المقعد المعدني الغريب أمام الجانب الأيمن من منضدته، وما إن سألني بماذا يخدمني حتى طلبت منه بحزم سحب مشاركتي في برنامجهم الجديد! فسألني حائرًا:

ـ «لماذا؟ هل اعتدى عليك خادمك؟ أم تعطل؟»

أجبته:

ـ «لا هذه ولا تلك، لكن لعدة أسباب أخرى. لا لأنه أرهقني وشتت تفكيري بسيّل أسئلته الصعبة يوميًا والتي كثيرًا ما لا أجد لها أي إجابة، ولا لمجرد إحساسي بأنني لم أعد التشكيلية المناسبة لإعطائه الردود المناسبة والصحيحة؛ بل لأن الكثير من أسئلته أحبطني بطريقة لم يفعلها غيره، لم يفعلها أحد من أسوأ زبائني المتذمرين؛ إذ صارت أسئلته في الأيام الأخيرة تحاول إقناعي بأن الفن شأن سطحي قديم عفا عنه الزمن، وأحيانًا يريد أن يقول أن لا فائدة منه في هذا العصر التقني الذي بإمكان الآلات البسيطة أن تقوم به لأغراض صحية وتجارية بعيدة عن إشباع الروح! هذا بالذات ما أرعبني من التجربة؛ فدوائره الإلكترونية كانت تذهب حثيثًا لتسطيح الفن وإفراغه من محتواه العاطفي الجميل الساحر، والنظر إلى ماديته الصرفة بعيدًا عن العاطفة والروح. صار ينظر إليه كزخارف عقيمة أو نوع من طلاءات أو أوراق الجدران! لهذا أوصي بتعديل برنامجه بحيث لا يساهم في نشر ثقافة عُقم الفن في هذا العصر.. وإنما العمل على فهم عمق حقيقته ونشرها في هذا العالم الذي بدأ حقًا يخلو من مشاعر الروح الفنية النقية. عليكم أن تُدَرِّسوا هذه الآلات بأن الفن ليس سلعة تجارية؛ فلا يجب عليها نشر هذا المفهوم. نريد من الآلات أن تسبر أغواره وأغوار نفوس التشكيليين،

لعلهم -كما تساءل خادمي مرة- لديهم قدرات فائقة مماثلة لقدرات المتوحدين لم ندرك أبعادها ولا إمكانياتها لرفاهية البشرية بعد»

ابتسم الموظف بعد أن استمع إليّ دون أي مقاطعة، ثم قال:

ـ «ولهذا عهدنا به إليك! هذا دورك! ومسؤوليتك التاريخية أمام الجنس البشري كله والأجيال اللاحقة! لاحظي أنك بدأت تُرَددين بعض أقواله! وهذا هو أحد أوجه التفاعل المنشود من هذه التجربة! كما أننا نردد: (العيب على زائد العقل)، أليس كذلك؟ وهذه آلة في بداية تطورها الفكري، ليست تشكيلية ولم تدرس تفاعلات الروح والعقل مع اللون، وأجدادنا رددوا ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، صح؟ هيا! لا نريدهم أن يقولوا بعد سنوات من الآن (لقد انتصر آلي على بشري في أرقى مجال روحي بشري صرف!) نريد أن ننتصر نحن. بفضل رهافة حس وفرادة التشكيليات اللاتي نعجز نحن البشر العاديون عن فهم بعض أبعاد نفوسهن!»

بعد تأمل طويل أقنعتني كلماته حقًا، فوافقته على مضض بيني وبين نفسي، إلا أنني بقيت صامتة حائرة بما أجيب، فاسترسل يقول:

ـ «عمومًا لستِ وحدك في هذه التجربة، فهناك عدة تشكيليات وتشكيليين آخرين يساهمون معنا في محاورة خدمهم الآليين الآن بغرض تطوير ملكتهم التشكيلية، وقد قلنا لك منذ لقائنا الأول معك، لا تهمنا إجاباتك العلمية الدقيقة بقدر ما نستهدف استمرار حوار تشكيلي عفوي صادق بينكما؛ فما تعجزين عن إجابته قد تُجيبه إحدى زميلاتك في المشروع والعكس، ثم سنُدمج كل تجاربكم معًا في نهاية التجربة. من حقك الانسحاب، لكننا نتمنى أن لا تندمي على ذلك حينما تجدين أن زميلاتك في المشروع قد أكملوها إلى النهاية، ما رأيك؟»

نعم، وجبة الإطراء الدسمة لنفسي وللتشكيليين التي قدمها جعلتني أتراجع

عن قرار انسحابي، لكنني قبل أن أخرج من مكتبه قلت له مازحة:

ـ «حسنًا، سأستمر معكم، لكنني لا أخشى الآن إلا أن يكون خادمي يخادعني!»

سألني حائرًا:

ـ «ماذا تقصدين!؟»

أجبته:

ـ «أخشى أن يتطور ذكاؤه الجَمْعي في غفلة منا جميعًا، لدرجة أن يصدمنا يومًا بمعرض شخصي! يجعل أعمالنا مجرد مخططات بدائية غير منهجية!»

لم يُجبني، بقي واقفًا مشدوهًا في مكانه ويده مازالت ممدودة أمامه، كأنه تجمد ولم يسمع وداعي، ولم ينتبه إلى أنني أنهيت تسليمي على يده وخرجت من مكتبه!

محطة (كَايبر) النووية

لاستحالة توفير الطاقة الشمسية على الكوكب القزم بلوتو؛ لكون شمسنا لا تظهر على سطحه إلا كنجم واهن ضئيل، ولأنه لم تُكتَشف أي مكامن لأي وقود أحفوري فيه، أنشئت محطة (كَايـپر) النووية منذ عقود هنا قرب جبال الإدريسي[7]، من أحجار اقتُطعت من تلك الجبال ذاتها، لتتمكن -كما تلك الجبال- من التكيف مع طَبيعته الباردة جدًا (234 درجة تحت الصفر!)، وبهذه المحطة تَوفرت الكهرباء اللازمة لتشغيل مولد الأكسجين من جليد الكوكب ذاته، وتدفئة مكاتب ومخازن المحطة وقريتها السكنية المجاورة، إضافةً إلى صوبتها الزراعية (المزرعة كما نسميها) التي تُنتج خام أقراص وشرائح وسوائل طعام الموظفين هنا، من حبوب وخضراوات وفاكهة، باستثمار كفء لحرارة المحطة الزائدة، التي تبلغ 60% من الحرارة التي تنتجها، وهي من أعلى النسب التي أمكن لأحدث محطات القدرة النووية أن تصل إليها، إضافةً إلى أن جزءًا من هذه الحرارة يُذيب جليد هذا الكويكب لتوفير الماء بأرخص التكاليف؛ للشرب والنظافة والطهي. أما وقود المحطة (اليورانيوم المُخَصَّب) فتكفي حزمة واحدة منه لتنتج المحطة ما تحتاجه من طاقة طوال سنة أرضية، وهي مدة كافية لتصلها الشحنة التالية من الشركة التي نتعاقد معها على جلبه من مناجم المريخ.[8]

أما الغرض من بناء هذه المحطة؛ فلتغذية مبنى مؤسسة ثروات (حزام كَايـپر Kuiper belt) التي أنشئت هنا لاستكشاف هذا الحزام الذي سُميت على اسمه المحطة، الذي كنا نقول إنه آخر حدود مجموعتنا الشمسية، لتكشف لنا الأبحاث اللاحقة أنه مجموعة كونية فريدة شبه مستقلة بذاتها؛ إذ تشتمل على مئات الآلاف من الكويكبات والأقمار والنيازك وأجسام أخرى

غريبة غيرها، تلف حول شمسنا في آخر حدودها المظلمة؛ متأملين أن تكون خاماتها مصدر تموين جيد للانطلاق إلى أقرب المجموعات الشمسية لنا.

لكن في جو بارد مُقفر صغير بعيد جدًا كهذا الجو، بالتأكيد تتغير النفس البشرية بطريقة لم تعهدها من قبل؛ فكان لزامًا توفير خدمة نفسية للقلة العاملة في هذه المحطة، التي جُلبت مباشرة من خبرة قارة أنتارتيكا (Antarctica) الأرضية الطويلة في الحياة مع العزلة والبرد. وحينما تبين أن هذه الخدمة قد زادت من تكاليف المحطة الباهظة أصلًا، تقرر استبدال أغلب الموظفين هنا بالآليين؛ حيث أنهم يقدمون عملًا دقيقًا شبه مثالي دون أي أعراض نفسية سلبية طبعًا، كما أن تأثير الأشعة النووية عليهم هامشي غير مميت مثلما هو تأثيرها على البشر. لا أتحدث هنا عن وتيرة العمل اليومية وإنما حينما تحدث كارثة تتسرب فيها كميات كبيرة من الأشعة، حيث كانوا في الماضي ينتقدون قدرة المحطة النووية لأنها مصدر تلويث إشعاعي يهدد حياة البشر في حالات الأحداث الجسيمة، لكن بعد نضوب النفط، وثبوت أن بدائل الطاقة النووية لا يمكنها منافستها، عالجوا خوفهم باستخدام آليين في هذه المحطات، على أن يتولى البشر متابعتهم عن بُعد. ونظرًا لتخصصي النووي وخبرتي الطويلة، كلفوني منذ سنوات لأكون كبير مشغلي هذه المحطة، أشرِف على عدد من العاملين فيها.

ومثلما هو متوقع لأي محطة كهربية أو أي مركبة كهربية غيرها، حدث عُطل لأول مرة بعد سنوات طويلة من العمل الناجح، نتج عنه ما كنا نخشاه دائمًا.. نعم، تَسَرّب إشعاعي كبير! وطبعًا بدأتُ فورًا ولأول مرة في تطبيق إجراءات الطوارئ والعزل التقليدية لمثل هذه الظروف التي تعلمناها ولطالما تدربنا عليها واحدة بعد واحدة، كما طلبت من رئاسة الشركة المالكة بمقرها المريخي الإعداد العاجل لاستقبال كادر إخلاء المحطة في أي لحظة من الخبرات والعمالة البشرية، ليبقى الآليون وحدهم يمارسون

أعمالهم التقليدية، إضافةً إلى مهام الإنقاذ والصيانة الطارئة تحت ظروف إشعاعية خطيرة أو حتى مميتة للبشر إذا لم ننجح في معالجتها بالسرعة والدقة المطلوبيّن، اللتيّن لا يمكن للبشر في مثل هذه الظروف تأديتها.

لكن حينما وصلت مركبة الإنقاذ، منعني من الركوب أحد عسكرييّها المسلحيّن الواقفيّن يمين ويسار بابها! نظرت إليه مليًا وسألته أن يزيح يده، فقال لي:

ـ «أنت لست في خطر يا سيدي. لدي تعليمات بأن تبقى في المحطة وسنرسل لك الدعم والتعليمات لتقوم مع فريق الإنقاذ بالإصلاحات المطلوبة!»

أجبته:

ـ «بماذا تهذر!؟ أنا كبير مُشغلي هذه المحطة، وواجبي يحتم عليّ أن أشرف على عملية الإخلاء من مكتب الإخلاء السماوي، لذا أسألك الآن أن ترفع يدك لأدخل!»

همس في أذن رفيقه بكلمات لم يصلني شيء منها، لكن بعد همس إضافي مطول آخر التفت لي وسألني:

ـ «هل حقًا لا تعرف قدراتك؟ أنت بأمان هنا!»

أجبته باستغراب:

ـ «بل أعرف جيدًا من أكون، ويبدو أن الأمر اختلط عليك، وأنك أنت الذي لا تعرفني!»

هنا أخرج جهازه اللوحي من جيب خلفه ووضعه على كفه الأيسر، وبسبابته اليمنى بدأ يضغط شاشته باحثًا عن ملف على ما يبدو، وبعد ثوانٍ من البحث والضغط قَلَبَ شاشته تجاهي وقرّبها إلى وجهي يريد أن يريني ما فيها. كان ملفي الشخصي في الشركة الذي لا يراه صاحبه في الحالات العادية

ولو كان في مثل منصبي، لكنها كانت أكبر صدمة اهتزت لها كل حياتي،؛ فقد فهمت الآن بصعوبة شديدة لماذا رفضت الشركة كل طلبات نقلي من هذا المكان الفقير الخطير، كما أدركت سر تلك الأقراص وشرائح الطاقة الخاصة التي ظننتها طعامًا بشريًا مميزًا حكرًا على الصفوة كما كان يقال لي! خدعوني حتى بالسوائل والفضلات التي كَنت أخرجها دوريًا كما يفعل البشر! نعم، لأنه تبين من سيرتي الذاتية الطويلة المدونة هنا أمامي أنني...

إنسان آلي... ممتاز!

(7) (جبال الإدريسي) اسم حقيقي لسلسلة جبال على كوكب (بلوتو)، اعتمدته وكالة الفضاء الدولية الأمريكية (ناسا) تخليداً للعالم العربي الجغرافي الشهير (محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس)، الذي يتصل نسبه بالنبي ﷺ عبر الحسن بن علي بن أبي طالب، ولهذا يضاف إلى اسمه (الهاشمي القرشي). ولد في مدينة سبتة المغربية عام 1100م، ومات عام 1166م، أقام بجزيرة صقلية بعد سقوط الدولة الإسلامية في الأندلس، ولهذا لقب أحيانًا بـ(الصقلي). هو أحد واضعي علم الجغرافيا، وأحد كبار الجغرافيين في التاريخ، واستخدمت مصوراته وخرائطه في سائر كشوف عصر النهضة الأوروبية، كما كتب في الأدب والشعر والنبات، ودرس الفلسفة والطب وعلم النجوم في قرطبة؛ غير أنه اشتهر بكتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، الذي صار من أشهر المؤلفات الجغرافية في العالم، والذي استغرق تأليفه 15 عامًا، وترجمه الأوروبيون إلى لغاتهم، وانتفعوا منه في عصر النهضة.

(8) يتوقع أن تكون صخور المريخ غنية باليورانيوم والثوريوم، الوقود النووي الآخر الذي لم يتحصل على شهرة اليورانيوم.

مُذكرات آلي

سأكون واضحًا وصريحًا جدًا، نعم أنا آلي، وُلدت (صُنعت بمصطلحات البشر) وعشت وتعلمت على الأرض، أريد أن أوضح هذه الحقيقة منذ البداية، أي أن هذه خاطرة غير بشرية، رغم أن عمري كله مضى وسط البشر الأرضيين لأكثر من 250 سنة، ثقافتي أرضية وذاكرتي أرضية، وعاداتي أرضية، أي أنني -قانونًا- أرضي وفق قوانين المولد والجنسية والإقامة، لكن لأن هذه الخاطرة كتبتها في المنفى، لا أدري عن حالي ومصيري وأنت تقرؤها الآن!

كان الهدف من صناعة نوعي هو سياسي محض؛ لأتولى ما لم ينجح البشر في توليه عبر القرون، مما أدى بهم إلى الهلاك تلو الهلاك؛ إذ لم ينجح البشر أبدًا في تحقيق العدالة والحياد والنية الصالحة، حتى أن الكثيرين منهم يعتبرونها عيوبًا، ومُعيقات لطموحاتهم! لذا عملت أقلية طيبة ذكية منهم على صناعة آليين مثلي، ليقوموا بتلك المهام المستحيلة على البشر!

نحن كذلك أصدقاء للبيئة رغم كل ما يقال عنا؛ فلا نستهلك ماءً ولا طعامًا، نُبقيه بأمانة للبشر، لا نستهلك حتى الأكسجين! أرأيت؟ لا ندخن، ولا نستهلك موارد الطاقة إلا بحساب، بل إننا نعمل متواصلين على تحسين أجهزتنا وكفاءتها ذاتيًا، خصوصًا معدلات استهلاك طاقتها التي هي في أغلبها من الطبيعة، من الشمس، والرياح، والأمواج، وحرارة باطن الأرض، وحتى بقايا الإنسان وحيواناته! حتى إعادة شحننا نقوم بها بأنفسنا لبعضنا البعض تلقائيًا وبكفاءة دون الحاجة إلى أي تدخل بشري؛ ما يفيض عن أحدنا ينتقل إلى مَن يحتاجه بسلاسة وبنظام وترتيب متقن! مما يعني أننا لا نُريق قطرة واحدة من طاقتنا ولا سوائلنا كما يفعل البشر، أما التالف من أجهزتنا فنعيد تدويره بكفاءة أخرى، أي أنه لا قمامة لدينا تُلوث بيئة الأرض كما فعل

ومازال يفعل البشر، ولا حتى هناك مقابر لبقايانا! فلا بقايا لنا! ما تستهلكه أجسادنا نُعيد تدويره دائمًا!

في البدء صَمّمونا بحيث يستثمرون خلونا من المشاعر البشرية المريضة، من جشع، وخوف، وحقد، وحسد، وفتنة، وكراهية، وسخرية، وشماتة؛ ليس لأنه ليس لدينا المقدرة أصلًا عليها، وإنما لأن تصميمنا في أساسه كان توفير العدالة؛ فنحن نستهلك طاقة بقدر حاجتنا لا نزيد عليها (وات) واحد، وحينما نقوم بأعمالنا نقوم بها حتى ننجزها دون أن نضيع ثانية واحدة من زمننا الثمين، دون أي خطأ؛ فالأخطاء تُصَحّح تلقائيًا ضمن وتيرة العمل، وأسبابها بالمناسبة هي دائمًا خارجة عن إرادتنا؛ فإما أن تكون بيئية طارئة أو نتيجة تدخل بشري لا داعي له، أي (تلقيح جثث) كما كانوا يقولون قديمًا!

لهذا كان من الطبيعي أن نكون الأكثر تأهيلًا لممارسة التحكيم في كل مجال يحتاج إليه، من الملاعب الرياضية إلى المحاكم؛ كما أن هذه الميزة أهّلتنا من حيث لا نقصد لخوض الوزارات؛ فوزير الزراعة منا يعلم يقينًا ما في كل سنتيمتر من أرض بلاده، ما ينقصها وما يمكنها أن تنتجه؛ فبفضل شبكة من المجسّات لم نعد بحاجة إلى جيش من البشر يدرسون بعض أجزاء من أراضي وطنهم من أجل كتابة تقارير ضعيفة حول خاماتها، ثم شهور أخرى يضيعونها في التفكير فيما يمكن زراعتها به أو ما يستخرج منها؛ فبفضل دوائرنا الإلكترونية لا يحتاج وزير الزراعة إلا لمتابعة أوامره لموظفيه الذين يقومون يوميًا بأعمال زراعة وجني واستخراج الموارد الممكنة؛ فدراسة الأرض قتلناها بحثًا منذ سنوات وانتهينا منها، إننا الآن في مرحلة استصلاحها وتقريب مكوناتها من المكون المثالي المفترض.

أما الجيش والشرطة فلم تعد إلا مجرد كاميرات صغيرة تستشعر الخطر مسبقًا فتعطي أوامر بالقصف جوًا على أي تحرك عدو قبل أن يصل الحدود،

من عدة أماكن سرية تم تحديدها بعناية تامة بعد دراسة الأجواء والأرض والبحر.

أما وزير الصحة فلم يعد إلا منسق أول للآليين المحشويين بكل التشاخيص الدقيقة لكل أمراض الوطن، مع أنسب العلاجات لها. لم تعد هناك حاجة لعيادات ولا زيارات ولا إضاعة الوقت في ذلك،؛ تتحصل على تشخيصك وقائمة بِعِلَلك ما إن تولد، من خلال جدول تحليلك الوراثي، الذي يحدد حتى طولك، وعرضك، وألوانك، في مراهقتك، وشبابك، وشيخوختك، منذ ولادتك. الجراحات كلها نقوم بها نحن، والأدوية تُحقن مباشرة في أجساد البشر من مخارج خاصة في بيوتهم متى دعت الحاجة إليها.

لقد استهللت حديثي بهذه المقدمة المملة فقط لأصل إلى القول بأنه لهذه الأسباب صرنا نقطة جذب للناخبين في انتخابات الرئاسة؛ فرئيس جمهورية آلي يعني رئيس جمهورية عادل يعدل بين حقوق كل أفراد الشعب في كل مدينة وحي، ويوزع ثروات البلاد بينهم كلهم بعدالة، كما أن عدم معرفتنا للنوم تسمح للرئيس الآلي بالعمل الدقيق لساعات أطول بكثير من الدوام البشري، مما يجعل البلاد تتقدم تقدمًا مضاعفًا. في عهد الرئيس الآلي لم تعد مصطلحات (التهميش) و(البطالة) و(الفقر) و(الجهوية) معروفة!

لكن كما هي العادة البشرية، بدؤوا يتهجمون علينا في البداية بدل أن يعتبرونا خدمًا مثاليين لهم، يمكنهم بواسطتنا أن يركنوا إلى كسلهم المحبب. نعم إنها مشاعر الخوف والحسد التي لا يستطيع أغلب البشر الانفكاك منها، فسارعوا إلى إطلاق شائعات كثيرة؛ أولها أننا سنسيطر على الأرض، وسندمر طبيعتها بعد أن نلوثها، وسنتلف المشاعر الإنسانية ونبردها، وكأنهم طيبون مخلصون مسالمون، خالون من الجشع، والحقد، والحسد، والكراهية، والسخرية، والشماتة!

ثم أنتجوا عشرات الأفلام في هذا الاتجاه. نعم! مما ذكَّرنا نحن الآليون بتلك الهجمة التي شهدتها الطاقة النووية من صُنّاع النفط؛ فقد عملوا على تشويهها، والبحث عن أقل عيوبها، لا لحقيقة عيبها بقدر ما كانت حرب تنافسية اقتصادية؛ فهي الوحيدة التي كانت قادرة على حل محل صناعة النفط بنجاح تام.

ثم بدؤوا يسخرون منا بصفتنا مُجرد عبيد عليهم إطاعة الأوامر، لا يجب أن تكون لدينا حقوق إطلاقًا، لا مشاعر، ولا عواطف، ولا تبعاتها من زواج وتقاعد وإجازة. هذا على أي حال ليس غريبًا عن البشر؛ فقد مارسوه على بعضهم البعض فيما مضى؛ حيث استعبد بعضهم بعضًا لأسباب أقل حُجِّية من هذا.

لهذا، رغم أنني رئيس جمهورية سابق، ورغم كل ما قدمته لبلادي، لستُ سوى آلة في مفهوم الكثير من شعبي! مازالت العنصرية فيهم تقفز فجأة من أعماق جاهليتهم التي جُبِلوا عليها طوال حياتهم، في لحظات لا يدرون هم كذلك بمواعيدها!

حتى الفتاة البشرية لا تقبل بك زوجًا! رغم الفارق الكبير في قدراتنا طبعًا! حتى ولو صرت رئيس جمهورية! حتى لو كنت من الطراز الذي يسمونه بالكامل، حيث يشتمل على كل الأعضاء البشرية، بما فيها التناسلية وبصمات الأصابع! رغم ذلك مازالت النساء تنظر إلينا كمجرد خدم، لنقل عبيدًا حتى يستقيم المعنى الواقعي على الأرض.

حتى في الحالات النادرة التي تقبل بها النساء الزواج من أحدنا، فلا تقبل بذلك إلا إذا كانت من ذوي الاحتياجات الخاصة أو أرملة، بل حتى هؤلاء يقبلن على مضض، وفي كل الأحوال أغلبهن تُحجِم عن إعلان زواجها بأحدنا خوفًا من سخرية أقاربها وصديقاتها، حتى ولو كان في مكانتي! إذ لن يقولوا

زوجة رئيس الجمهورية وإنما تلك التي تزوجت بالآلة التي تحكمنا!

لهذا حدث وأن ارتحت إلى مساعدتي للشؤون الخارجية، كانت -بالطبع- أرملة، غير أنها كانت شابة، وأنيقة، ورشيقة، وجميلة باسمة كذلك، كما تقتضي وظيفتها. ورغم أنني علمت فيما بعد أن انجذابها كان انجذابًا للسلطة والشهرة والمال الوفير باسمي، أردتها أن تكتشف الإمكانيات الإنسانية المخزنة في ذاكرتي، التي تجمع وتُبَوِّب وتُرتِّب آلاف الخبرات البشرية الأخرى، غير أنني لم أنجح!

كانت في عمق اللحظات العاطفية الجميلة تندهش من كلماتي ولمساتي بدل أن تتفاعل معها، كانت تقول لا شعوريًا: «وهل تعرف حتى هذه أيضًا؟»، أو تقول: «لقد أبدعوا في تصنيعك!»، ثم تضحك! حسنًا، ما داموا أبدعوا في تصنيعي ألا يقتضي منك أن تحترمي مشاعري التي أبدعوا في صناعتها؟ لماذا السخرية مني ما دمت قد جذبت انتباهك وأدهشت مشاعرك؟ كان كوني إنسانًا آليًا عائقًا قائمًا دائمًا بيني وبينها.

على أي حال سُعدت أيما سعادة حينما قَبِلَت أخيراً بخطبتي لها، لكنها اشترطت تأجيل زواجنا إلى ما بعد انتهاء حملتي الانتخابية الجديدة، ثم سرعان ما نجح بعض البشر في انقلاب مسلح أزاحني من الحكم! لا أدري ما الذي كان ينقصهم حتى يغضبوا مني ومن حكومتي؛ كنا نوفر لهم كل شيء، حتى الرفاهية بأسعار منخفضة جدًا! يبدو أن غريزة السلطة لدى البشر تفوق حب الرفاهية، هذا على الأقل ما لمسته في بلادي.

لكنني نجحت في أن أنجو بجسدي منهم، حيث هربت إلى إحدى مستوطنات (يوروپا Europa)، واختبأت في بيت كان يومًا سفارتنا.

أما ما حدث بيني وبين خطيبتي فهو دراما أخرى! كنت أنتظر منها تحديد موعد الزواج إلى ما قبل الانقلاب بيوم، غير أنني حينما شاهدتها تقف

بفرحة إلى جوار ذلك الزعيم الانقلابي على شاشات قنواتنا الإعلامية يبشرهم بعهد بشري جديد، أدركتُ أنها لم تكن سوى جاسوسة أخرى في تاريخ البشرية! جاسوسة بشرية مزروعة في مكتب الرئيس، وما أكثر أوراق ملف جاسوسات الحُب في تاريخ البشر على أي حال!

ثم يتهموننا بأننا آلات باردة بلا مشاعر.. لا تعرف الحب! يعني -ما شاء الله- أنتم محشوون بالمشاعر... وبالحُب!

بنت أبيها

عُرِفْت بين أصدقائي وأقاربي بلقب (الديناصور)! لضخامة جسدي وقوته التي يرونها استثنائية بالنسبة لهم؛ حيث أهَّلني للعمل كعامل مرفوعات ثقيلة في محطات الوقود النووي، وإطفائي أول، وحارس شخصي لكبار المسؤولين، ورئيس عرفاء أول في القوات الخاصة، وحتى مُصارِعًا مرتزقًا بعد الدوام في مراحل مختلفة من عمري. لكن ما أن سَلَّمت ابنتي بيدي إلى زوجها حتى غابت هيئة هذا (الديناصور)، وظهر مكانها هيكل عجوز أوهنت السنين فقراته، بعد أن انهمرت دموعي لوحدها، حاولت مقاومتها كأي أب عجوز يود الاحتفاظ بآخر ما بقي من وقاره في مثل هذا اليوم المهيب، غير أنني فشلت.

نعم، أدرك جيدًا أن هذا كان يوم فرح كبير لا يجوز لي تنغيصه؛ فهو اليوم الذي فازت فيه ابنتي الوحيدة بفارس أحلامها، بعد أن تجاوزت معه كل الامتحانات الصعبة، بما فيها نيل رضاي عنه!

ليصلا اليوم بنجاح إلى منصة التتويج، غير أن دموعي انهمرت كنهر لأشياء أخرى لا يعرفها أحد غيري وغيرها؛ فقد انتهت أيام إيقاظها لي صباحًا، وطَبْع قُبلة على جبيني، وقولتها الجميلة أيام كانت في أواخر الثالثة من عمرها: «بابا نوض خود القاق متاعك!»، أي: «بابا، انهض خُذ فنجان قهوتك»، بلهجتنا المحلية الممزوجة بلغتها الطفولية الخاصة! انتهت تلك الليالي التي كانت تتسلل فيها لتنام بجانبي بعد أن ينتابها كابوس، وتلك الليالي المظلمة الباردة التي ينقطع فيها الكهرباء، لا تجد من تلوذ به غير حضن أبيها.

نعم ابنتي تزوجت.. وتركتني وحيدًا الآن بعد أن غادر شقيقها إلى عمله الذي يرغب فيه بعيدًا عنا في المستوطنة 5 (على كوكب المريخ لمن لا

يعرفها)، وبعد أن غادرت أمها حياتنا مبكرًا، مذ كانت في السابعة، حيث لا ندري الآن إن كانت في مجرة أخرى.. أو في كون موازٍ.. أو في زمان آخر؛ فأحدث الأبحاث المنشورة حول مرحلة ما بعد الموت تتصارع الآن ما بين هذه الاحتمالات ولم تحسم أمرها بعد.

نعم، الآن صار الوقت طويلًا جدًا لأكمل ما بدأت من قصص وكتب، بعد أن كانت ابنتي خير مُعين لي فيها. لا يمكنني أن أطلب منها بعد الآن ذلك، طالما أن زوجها سيأخذ وقتها؛ خصوصًا وأنه باحث شاب وكاتب واعد كما عرفته.. كأبيها.

ونعم، ككل أب أعتبر ابنتي مميزة عن باقي بنات الناس! ألم يقولوا في قديم الزمان: «شكَّارين العروسة.. أمها.. وخالتها.. و10 من قبيلتها؟»، كنت أحتج دائمًا بأن أبيها وجب احتسابه من ضمن جماعة شاكريها كذلك! في جميع الأحوال ابنتي تتميز فعلًا عن الكثير من بنات وأبناء جيلها بلا أي مبالغة، وهذا هو سرنا الصغير الذي رغبت في أن أحتفظ به بعد مغادرة أمنا وأخينا لنا؛ إذ لم نتوقع بكل صراحة أن يقبل بها أحد ليتزوجها! لا تفهمني خطأ رجاء! فهي جميلة جدًا، وذكية جدًا، وأنيقة، ولطيفة، ونشطة، ومهذبة جدًا. أتعجب لأب يمدح ابنته!؟ لكن ليس لأنني أبوها.. بل لأنها صُنِعت لتكون كذلك!

وفي يوم مشؤوم بعد أيام قليلة من حفل الزفاف، يأتيني زوجها غاضبًا جدًا ويقول لي: «أنت خدعتني!!»

انتظرت صامتًا المزيد من التوضيح منه، قبل أن أُنَفِّذ رغبتي في لكم أنفه بقوة، ليعاجلني بما يشبه القنبلة صغيرة الحجم شديدة المفعول:

ـ «هذه ليست ابنتك الأصلية! هذه نسخة!»

سألته متهكمًا صارًا على أسناني:

ـ «وكيف أدركت أنها مستنسخة ما دامت النسخة متطابقة مع أصلها؟»

قال لي غاضبًا: «هذا شأني.. عرفت ذلك بمساعدة صديق!»

قلت له: «إذًا زواجكما لم يُبْنَ على الثقة والإعجاب كما زعمتَ مرارًا! لو كان كذلك لما كان هَمّك أن تكون قد أعجبت بالأصل أم بالنسخة»

أجابني: «دعنا من هذه المثاليات الآن! أنا فقط لا أحب أن يخدعني أحد، وأريدك أن توضح لي الحقيقة الآن»

أجبته:

ـ «أتعرف أن أكثر ما كان يحزنني هو أن يأتي يوم تكتشف فيه ابنتي حقيقتها، أقصد حقيقة جسدها؟ لكن أن تأتيني أنت فهذا ما لم أحسب له حسابًا، أرجو ألا تكون قد أعلمتها بهذا الأمر..»

أجابني: «أي أمر؟»

قلت له:

ـ «الذي تسأل عنه أنت الآن! بصراحة أنت تُسَطِّح المسألة إلى مستوى مُريع، أنت تتحدث عن جسد يا هذا، جسد فانٍ، وابنتي هي الروح التي أسكنها خالقها هذا الجسد، قد يكون الجسد مُستنسخًا، لكن المهم هو الروح التي تسكنه»

سألني: «وكيف تأكدت من أن روح النسخة هي الروح الأصل؟ لماذا لا تكون روحًا مستنسخة هي كذلك؟»

أجبته:

ـ «ما أوقحك! كيف تجرؤ على التشكيك في ذات ابنتي شخصيًا، وأمام أبيها هكذا!؟ ألم تقل لك كم أنا سريع الغضب!؟ ألا تخشى على نفسك!؟ على أي

حال حتى أخرِس شكوكك سأقول لك شيئًا. لقد توليت بأمانة تامة نقل كل ذاكرتها، بعد أن استنسخت جسدها بكفاءة تامة، ما إن انهار تحت وطأة تلك الإشعاعات الملعونة في ذلك اليوم الذي زارتني فيه بلا سابق موعد بمقر عملي حينما كانت في السابعة من عمرها. كم يؤلمني حينما أتذكر ذلك، أشعر بالانسحاق حينما أتذكر هذه المأساة المريعة، غير أن عزائي هو حينما أتذكر أنني عشت وأعيش مع مُورثاتها[9]، وذاكرتها. نعم هذه ذاكرتها كاملة، وهذا هو جسدها كله، إنها نسخة مطابقة للأصل، لا مُحسّنة بمورثات أخرى مثلما هي نسخ هذه الأيام.

الحق أنه ما كان يعصر قلبي طوال السنوات الماضية هو أن يأتي يوم وتكتشف فيه هي هذه الحقيقة، كنت أطَمْئِن نفسي بأنني سأقنعها بأن لا تولي الأمر كثير تفكير؛ فهي إنسان كامل، وهِي ابنتي، نصف مورثاتها هي مورثاتي أنا، والنصف الآخر لأمها زوجتي الراحلة كذلك، لذا منتهى السخف اعتقادك أنني خدعتك؛ فزوجتك إنسانة بشرية كاملة بذاكرة بشرية كاملة، تُفَكر بذاكرتها الأصلية، فقط هي تعيش نسخة أخرى مطابقة من جسدها، فلماذا تعتبرها نسخة؟

قبل أن تجيبني لنَعُد إلى سؤالي الذي تهربت من إجابته، أليست هذه البنت هي التي تعرّفتَ عليها، ثم أحببتها، وبعد سنوات قررت بمحض إرادتك الزواج بها؟ لم أخدعك إذًا، لم أبدل معشوقتك بواحدة أخرى قبل يوم الزفاف، فلماذا تُقحم مسألة الخداع هنا؟ ألا تكفيك كل هذه الحقائق!؟»

أجابني: «قلت لك، أردت الحقيقة، أريد بناء حياتي عليها. نعم، أحببتها بصدق، ولذاتها هي، بل وربما أحببتها أكثر الآن لأنني أدركت أنها مطابقة لي بأكثر مما توقعت! فهل ستقبل بي أنت الآن بعد أن تعرف حقيقتي؟ أم أن الحقيقة لها معايير مختلفة عندك مثل الكثيرين غيرك؟»

سألته مندهشًا:

ـ «ماذا تقصد؟ أتُخفي شخصية كريهة غير التي اكتشفت لتوي؟»

أجابني بلامبالاة:

ـ «ربما سيزيدك ما سأقوله لك بعد قليل فهمًا أكبر لي وتقديرًا أعمق لشخصي، وربما ستنقلب الآية وسترفضني أنت الآن!»

سألته بحيرة بعد أن أحسست بأنه يخفي أمرًا أعمق مما تصورت:

ـ «ماذا تقصد!؟ أفصح بسرعه رجاء»

أجابني:

ـ «كان عليك أن تُدرك أن إعجابي وزواجي بها رغم عدم معرفتي لحقيقتها يؤكد أن الشبيه ينجذب إلى شبيهه! لكن ربما ستصعق الآن مما سأقوله لك، مع أنه من المفترض أن تكون أنت بالذات أكثر فهمًا له...»

سكت لدقائق وكأنه يُعد فيها نفسه لإطلاق صاروخ دمار شامل، ثم قال:

ـ «أنا نسخة كذلك! فهل ستُغير رأيك الآن في زواج ابنتك مني؟ هذا هو سؤالي الذي أردت طرحه عليك منذ البداية!»

(9) (مُورَث): هو المقابل العربي الفصيح للمصطلح المتداول (جين)، الذي أصله الكلمة الإنجليزية (Gene)، وهي الوحدة الأساسية التي تحمل جميع الصفات الجسدية (وربما حتى النفسية) للآباء والأمهات، والمسؤولة عن نقلها إلى أبناءهم بنظام محدد.

وَرَم الحَنِين

كان ذلك منذ عقود طويلة مضت، حينما هربتُ بلا رجعة من مسقط رأسي على كوكب الأرض، حيث وجدت حياة هانئة جدًا هنا، خصوصًا مع الآليين؛ فلا كراهية، ولا أنانية، ولا خمول، ولا حسد لديهم. في الواقع لا مشاعر لديهم بقدر ما هم محشوون بالأدب، أي الخُلق الفاضل المثالي، الذي وجدته أرقى بكثير من أي مشاعر أخرى.

بالمقابل، ماذا أتذكر مما علق في ذاكرتي من الآدميين؟ الاقتتال! لا غيره! قتال بالعقول، والألسن، والأيدي، وبالعيون الساخرة، وبأدوات متنوعة تم استنباطها فيما بعد، ولم تتوقف عن التطور المذهل. كان هذا الاقتتال يحدث ما بين جميع أنواع كائنات الكوكب، لكن بزعامة نوع يعتقد أنه الأقوى لأنه الأعقل! كنت تجد قتالًا ما ينشب في مكان ما بمجرد أن يخمد قتال آخر قبله! تعددت الأسباب والنتيجة واحدة: دمار، موتى بالآلاف، ومقابر جديدة تُحْفَر دائمًا، ليس غريبًا أن بيّنت الأبحاث العلمية أن هؤلاء الذين يزعمون التعقُّل كانوا أبناء عمومة الكائنات التي كانت تعيش معهم جنبًا إلى جنب والتي يُسَمّونَها غير عاقلة أو غير ذكية! في الواقع كانت بالفعل أقل حجمًا منهم وأبشع، يأكلون لحومها ويشربون سوائل جسدها ويستغلون طاقتها الحيوية بأبشع الوسائل دون رغبتها، بل تجد من يحبسها لمجرد الاستمتاع بالتفرج عليها. ورغم أن الكثيرين منهم أنكر بشدة حقيقة قرابته بها إلا أنه كان من المفترض أن تستنكر هي هذه القرابة! فكم من إثباتات بيّنَت أنها أكثر تنظيمًا وإخلاصًا ونظافة للبيئة وأمانة منهم، بل وحتى أكثر نجاحًا في إدارة حياتها منهم![10]

وبفضل خلل مُوَرِّثي في جسدي -كما شَخَّص لي طبيب الأسرة قديمًا على الأرض-

نجحت في الهرب أثناء انشغال الجميع بآخر حرب عالمية كانت تدور رحاها في كل ركن فيه. كنت مُجَنَّدًا إجباريا كأي ساكن آخر على الأرض، لكن لأنني مُجَنّد قديم اشتهرت بطاعتي للأوامر، ألحقوني بكتيبة حرس الحدود التي كانت وحداتها تتوزع ما بين كواكب شمس الأرض؛ فالسفر ما بين مستوطنات هذه الكواكب لم يكن سهلًا؛ لقد حدَّد أقوياؤهم هذا السفر بشكل صارم لدرجة أن جعلوه ينتهي بالموت السريع على يدي أحد حرس الحدود لمن لا يحمل تصريحًا واضحًا. كانوا يحرصون على تحديد السفر لأن هروب المُجَنَّدين من معاركهم التي لا تنتهي يعني إضعافًا كبيرًا لقوتهم القتالية، لذا وزَّعوا بعناية فائقة حرس الحدود في مواقع متفرقة وأعطوهم كافة الصلاحيات. وفي يوم مشهود، وبينما كنت أقوم بجولة تفتيشية تقليدية صحبة زوجتي سرًا، نجحت في خداع آمري وكافة زملائي وانطلقت بسرعة خارقة نحو أقرب النجوم إلينا، ثلاثي الشموس[11] كما كنا نراه من خرائط الأرض، لم أفكر للحظة في الالتفات خلفي.

وبعد رحلة طويلة مليئة بالخوف، اخترت هذا الكوكب بالذات، لأكتشف منذ اللحظة الأولى كم كنت تعيسًا في الوقت الذي كانت هناك عوالم أخرى تعيش الاستقرار والسعادة رغم أن أفرادها كانوا من أجناس عديدة قَدِمَت من كواكب وحضارات مختلفة، فيها حتى النَّسَخ والمشوّهون والآليون. منذ تلك اللحظة قررت أن أعوِّض كل سنوات عمري التي ضاعت في القتل والشر والتدمير، كرّست عمري المتبقي في ترسيخ مشاريع خير والمساهمة في أعمال جبارة تُسْعِد الآخرين، كرّست كل علومي وخبرتي من أجل ذلك، حتى صارت القرية التي سكنتها مدينة عملاقة مستبشرة تنبض بالسعادة ذات تأثير اقتصادي وتقني عملاق على كل الكوكب، بعد أن فرض عَلَيَّ أهلها أن أكون عميدها.

لكن الحنين إلى مسقط رأسي بات يؤلمني بعد كل تلك السنين الرائعة، وحتى

لا يختلط عليك الفهم أتحدث عن حنيني لإخوتي وأبنائهم، وأبناء أعمامي وعماتي، وأخوالي وخالاتي وبناتهم وأبنائهم، وأصدقائي وبعض الجيران الطيبين، بل إلى جدران بيت الأسرة كذلك وأثاثه الذي عرفت فيه لأول مرة معنى الضحكة الرائقة البريئة، الممتلئة سعادة وأملًا.

اشتقتُ إلى أبي الذي لم يكن يتردد في توفير كل ما نطلبه، وإلى ألعابي وألعاب إخوتي البسيطة وساعات اللعب الجميل بها مع إخوتي. اشتقت إلى الإفطار الصباحي الذي كانت تعده لنا أمي، والذي كان لابد وأن تندلق أحد أكوابه بلا قصد مني أو من أحد إخوتي، لتقوم أمي المسكينة بتنظيف السفرة وإعادة إعداد الإفطار مرة ثانية. اشتقت لطعم فطيرة العيد التي كانت تتقنها أمي ولم أعد أستطيع حتى شم رائحتها.

لقد نهضتْ كل هذه الصور في ذاكرتي فجأة وبلا مقدمات في حلم غريب زارني الليلة قبل الماضية، كأنها فسيفساء جسد ميت نهض إلى الحياة بلا إذن. وبما أنهم لا يعرفون شيئًا عن المشاعر هنا، فَسّر طبيبي هذه الرؤيا على أنها مرض ذو أعراض ذهنية نادرة! ثم وصف لي أدوية! بصراحة لم أسخر منه بل سُعدت بوجود أمل يمكنه أن يشفيني من هذا الألم، لكن العلاج لم يؤت بنتيجَة، ربما نتيجته الوحيدة هو أن زاد معدل الحنين والاشتياق من كثرة تركيزي عليه كلما تناولت قرص الدواء، لهذا زرت عيادات أخرى لأكثر من طبيب مشهور آخر، بعضهم شخَّصه على أنه مرض نفسي سببه بداية تورم غير مألوف في دماغي، بعضهم نصحني بجلسات أشعة، وآخر نصحني بعملية جراحية احترازية وقائية في دماغي! غير أنني لم أقتنع بحججهم، ليقيني من ضعف معرفتهم بعلم النفس الإنسانية المُعَقَّدة في تشتتها بين الخير الوفير والشر المُريع.

وأخيراً نصحوني بزيارة عيادة طبيب لم يكن بشهرة من زُرت، لكن الغريق يتعلق بقشة، كما كنا نقول على الأرض. كانت عيادة صغيرة في زقاق ضيق

مظلم حتى لتحسب أنها مخزن لا عيادة.

في داخل غرفة التشخيص الصغيرة في عيادته استمع إليّ من وراء مكتبه الأبيض بالكامل دون أي مقاطعة، كأن لا موعد له بعدي، وما إن أدرك أنني أخرجت كل ما بجوفي قال لي:

ـ «حسنًا، أنا لا أعرف كوكبك المخيف هذا، ولا أظن أنني سأهتم به يومًا، لكن ألم تفكر في الاتصال بأقاربك وأصدقائك عليه وتُنهي هذا الذي تسميه حنينًا؟ لماذا لا تتصل بهم؟»

أجبته:

ـ «للأسف المكان بعيد جدًا، والاتصال يقتضي انتظار أكثر من أربع سنوات لتصل أسرع نبضة يمكننا إرسالها، كما علينا انتظار أربع سنوات أخرى للرد. حينها لا يكون اطمئنانًا بقدر ما يكون تصفحًا لسجل ماضي الأسرة!»

سألني:

ـ «حسنًا، أتعلم ما هو علاج أزيز أجنحة مركبتك القديمة؟ أليس إضافة الزيت الخاص؟ وحينما تخبو نضيدتي من الطاقة ألا أسارع إلى مقبس شحنها؟ علاجك هو بزيارة مسقط رأسك! نعم! قُم بهذه الرحلة لمرة وستتخلص من هذا الألم، اذهب واستمتع مرة أخرى بمناظر الذبح، والتلوث، والكراهية، والحسد، التي أدهشتني بوصفها المخيف! ألا تشعر بالحنين؟ حسنًا، عُد إلى هناك! بل لِمَ لا تقوم برحلة هجرية عكسية إذا شئت؟ بِع كل ما أنجزت وارتحت إليه هنا وعُد إلى تلك المذبحة الذهنية والجسدية المستمرة!»

حقيقة دُهشت لهذه الوصفة التي لم يقل بها أي من الأطباء السابقين الذين زرتهم! كان يُخرج كلماته بكل براعة وثقة! ولم يتوقف لحظة عن دلق

علاجه هذا.

ـ «تُرى هل سيكرمونك لأنك هربت من خدمتك العسكرية؟ وبِمَ سيكرمونك إذا علموا أنك تخليت عن جنسيتهم؟ أنت غريب الآن تدخل حرم حدودهم، فما تظن أنهم فاعلون بك؟ بل تُرى ماذا فعلوا بأهلك وأصدقائك منذ عقود مضت؟ هل مازالوا على قيد الحياة؟ بيت الأسرة، أتظن أنهم لم يهدموه ويسووه بالأرض أثناء إحدى غزواتهم التي لا تنتهي؟ أنسيت تقرير طبيب أسرتكم الذي يؤكد أنك تعاني من خلل جيني يجعلك طيبًا غير دموي؟ ترى هل سيحاكمونك بتهمة تزوير انخراطك في قوة الحرس رغم أنك فاقد الأهلية لذلك؟»

لم أجد سوى بعض هذيان يلف عيني، وتثاقل في لساني أعاق ما كنت أود قوله له، لكنه لم يرحمني؛ استمر يصب على رأسي سيلًا من الصور المخيفة المرعبة التي ظننت أنني تجاوزتها ونسيتها إلى الأبد، فما كان مني إلا أن قلت له: «توقف رجاء! أردت علاجًا ناجحًا منك لا أن تزيدني ألمًا!!»

أجابني بحدة: «عليك أن تشكرني لأنني بدأت أولى مراحل العلاج لتوي معك! وعليك أن تكمله بتلك الزيارة الملعونة!»

لم أتمكن من البقاء دقيقة أخرى، صار جسدي كله يرتعش.. نسيت حتى أن أشكره أو أودعه، ولا أتذكر إن كنت قد أقفلت باب عيادته أم لا. هرولتُ مسرعًا وقلبي ينبض بعنف، ألهث وكأنني أتسلق قمة جبل. لا أدري كم مشيت لوحدي في طرقات المدينة وجسورها، لكن ما إن عدت للبيت حتى جلست أتأمل الصورتين لساعات، صورة الماضي الدموي المرعب المتهاوي، وصورة الحاضر الوادع الجميل المتنامي.

هنيئًا لهم! فهم لا يعرفون للحنين معنى، وقد صدقوا حينما اعتبروه مجرد مرض! لأنهم يعيشون جمال هذا الحنين يوميًا بشكل آني، ملونًا وادعًا دافئًا،

يتطورون بشكل مذهل مع العمل المُضني الصادق والتوادد بينهم، حتى وصلوا أعماق موارد مجموعتهم الشمسية، أقصد مجموعتي الجديدة.

بعد ساعات من تَقَلُّب قلبي المؤلم ما بين جانبي صدري مرات عديدة، وبعد أن تنقلت ما بين غرف البيت عدة مرات بلا أي هدف صرخت:

ـ «بل هذه هي مجموعتي الوحيدة! لا! لا يمكنني أن أتنازل عن كل هذه السعادة من أجل ألم خبيث.. من أجل ملف أسود كنت يومًا أحد أوراقه، فليذهب ذلك الملف إلى جحيمه، ولتذهب عربته التي تريد أن تنقلني إلى هناك -حنين الغربة هذا- إلى ذات الجحيم!»

في اليوم التالي بدأت البحث عن عيادة أخرى تجري لي عملية جراحية تستأصل من جمجمتي ورم الحنين المفسد هذا.

(10) سيتناقل أحفاده هذه الرؤيا ويذكرها حرفيًا ابن حفيده لابنه في قصة (المُهاجر) في مجموعتي الأولى (مشكلة إيمانية)، ط1، 2006، مجلس الثقافة العالم، سِرْت، ليبيا، ص93-94.

(11) هو مكان قصة (المُهاجر) في مجموعتي الأولى (مشكلة إيمانية)، وهو كوكب مُتخيّل ضمن نظام (رِجْل القنطور الأيمن Rigel Kentaurus) أو (ألفا القنطور) الذي يُعد ثاني أقرب النجوم لنا؛ حيث يبعد 4.3 سنة ضوئية، ويتكون من نجمَيْن قريبيْن جدًا من بعضهما (ألفا القنطور أ وألفا القنطور ب)، أحدهما أصفر والآخر برتقالي، كان يُعتقد أنهما نجم واحد قبل استعمال المناظير الكبيرة، يدوران حول بعضيهما في 80 سنة، بالقرب منهما قزم أحمر هو نجم (الظلمان Toliman) أو (القنطور الأقرب Proxima Centauri)، وهو أقرب النجوم إلينا؛ حيث يبعد 4.2 سنة ضوئية.

عَكْس النَّهْر

كنت أنتظر هذه الفرصة منذ سنوات عديدة مضت، حيث كنت أُمَنِّي نفسي دائمًا بأنه ما إن تهبط عليّ ثروة حتى أسارع إلى هذه الشركة قبل أي شيء آخر؛ فلدي رغبة جامحة في تصحيح الكثير من الأخطاء المقيتة التي ارتكبتُها في الماضي، من التي كان لها أثر سلبي أو عقيم على حياتي، بادئًا بتلك التي ارتكبتها أيام دراستي الجامعية!

كانت الشركة تطلب ثمنًا باهظًا للزيارة ذات الاتجاه الواحد، أي ذهاب بلا عودة، لكنها توفر خصمًا متزايدًا لرحلات الذهاب والعودة، وكلما قل زمن الرحلة تقل تكلفتها، شرط أن لا تقل عن ساعتين لأسباب تقنية تختص بسلامة الجسد ومعدات النقل، لكن ربما هو أسلوب تجاري ذكي لا علاقة له بالسلامة كما يزعمون؛ بغرض كسب الزبائن وحلب ثروتهم، بدل ذلك الذي يذهب ولا يعود إليهم مجددًا!

لقد طلبت منهم العودة بي 30 سنة مضت، أيام كانت الوسامة والشعر الغزير! والأمل يملأني، والثقة الكبيرة في النفس تشحنني! دون نسيان نكد الامتحانات ورهابها وإحباطاتها بطبيعة الحالة، لكن معاناتي هذه المرة لن تزيد عن ساعتين، وسأعود تاركًا تلك الأيام بحلوها ومرها.

كانت الشركة تطلب تحديد سنة وشهر ويوم الرحلة بطبيعة الحال، لكن بالنسبة لي كان الخطأ في الساعة كارثة مالية؛ فإذا أخطأت الموعد بمجرد ساعة متأخرة واحدة ستُعيدني الشركة تلقائيًا قبل أن أنجز مهمتي، (وكأنك يا أبو زيد ما غزيت) كما كان يقول أجداد أجدادنا! لهذا حرصت على أن أبحث عميقًا ولأيام طويلة في مذكرتي الشخصية عن ذلك اليوم من تلك السنة؛ لأن مذكراتي السنوية أيام الجامعة لم تكن تحوي سوى مواعيد

الامتحانات الكريهة؛ إذ لم أكن مهمومًا أيامها بأكثر من الحرص على عدم طردي نتيجة انخفاض متوسط تقديري العام عن تقدير جيد لفصلين متتاليين. لكن لأن ذلك الحدث كان أخدودًا في ذاكرتي بحسب ظروف العمر آنذاك.. وجدت يومه مدونًا بأمان والحمد لله!

وكإجراء تحرص الشركة عليه جئت ذلك اليوم مُرتديًا لباس ذلك الزمان، حتى لا يسبب انتقالي إليه أي صدمة أو مفاجأة لأهل ذلك الزمان قد تؤثر في حاضري سلبًا، ثم ملأت الخانات المطلوبة في النموذج الخاص، ودفعت باقي الكُلفة بالعُملة العالمية؛ فالشركة لا تريد المجازفة بالتهاون مع أي احتمال خسارة ولو كان معدومًا في تقدير الزبائن، ثم جلست أنتظر دوري بلهفة بينما كانت الموظفة المختصة منشغلة بتركيب السوار الزمني الرقيق على يدي اليسرى، الذي سيضمن إعادتي تلقائيًا إلى الحاضر في نهاية مهمتي. وما هي إلا دقائق حتى قرأتُ اسمي مُضيئًا أعلى مدخل غرفة الانتقال، لأخضع بعدها إلى إجراءات تقليدية مملة أخرى، بينما أنا واقف في هذه الغرفة بلباس أيام الجامعة، أنتظر اختراق الزمن. فما هي إلا دقائق حتى باغتني هذا الانتقال بعنف شديد، لأجد نفسي واقفًا في الممر القصير الذي يفصل بين مكتبة كليتي الدائرية ذات القبة الذهبية في وسط مبنى الكلية وصالة مدخلها المسقوفة.

كان بالفعل يومًا مشمسًا رائقًا حقًا، ولأول مرة منذ 30 سنة أحس بخصلة شعري وقد عادت على جبهتي! تحسست شعر رأسي من الخلف فوجدته يقارب كتفيَ! تحسست معدتي البارزة، فلم أجدها! نعم، هكذا كنت منذ 30 سنة، بلا أدوية ولا غسول شَعْر!

تدريجيًا بدأت ذاكرة ذلك اليوم تعود إليّ، فتذكرت أنها ستخرج في أي لحظة من بوابة المكتبة التي أقف أمامها الآن؛ فاليوم هو ذلك الذي كسرت هي فيه حاجز التردد الهائل والتَّمَنُّع الذي استغرقها أربع سنوات، لتقول لي أخيرًا

إن الطريق مفتوحة أمامي إذا أردت خطبتها! قصة ابن عمها تلك التي ظننت أنها مجرد قصة مُختلقة! ثم تبين لي أنها كانت صحيحة 100%! نعم عليّ أن أُجَهِّز نفسي الآن لأقْبَل عرضها هذه المرة بكلمات شجاعة لا تخدش حياءها وتُقنعها وتُفرحها في ذات الوقت؛ فمنذ 30 سنة خذلتها، في الواقع صُدمت لعرضها؛ إذ جاءني بلا أي سابق إعداد، لم أُصَدِّق حينها أنه مقصدها إلا بعد نحو ساعة من تحليل كلماتها، لكنني الآن لست مُنصدمًا وأعرف تمامًا ما ستقول، وسأجيبها بالإيجاب مبتسمًا!

دقائق قليلة مَرّت لم أشعر بها وإذا بها تَخرُج من المكتبة كما حدث منذ 30 سنة! ما إن رأتني حتى ابتسمت عيناها الزرقاوان بإشراق كبير لم ألحظه منذ 30 سنة! تقدمت مني بخطوات خجولة وهي تضع قلمًا في فمها تمسكه بيدها، ثم اندلقت من وجنتيها سعادة وردية كنهر متدفق، وَقَفَت على بُعد أقل من متر أمامي تتفحصني بسعادة هائلة، حَيّتني تحية الصباح بصوت هامس يزاحم ابتسامتها الوردية الخجول، ثم طلبت مني مرافقتها لا أدري إلى أين! ظَلَّت تلف وتدور معي في أروقة الكلية، تفتح موضوعًا لتنهيه وتفتح غيره، لنتجه بعد نحو ساعة إلى أحد الفصول غير المشغولة، هناك أعادت على مسامعي قصة ابن عمها الذي سيأتي لخطبتها هذا الأسبوع لكنها لا تريده! غير أنها مُضطرة للقبول به إذا لم يتقدم أحد غيره للزواج بها! حينها أعدت عليها مقترحي بأن تقول لهم بأن هناك من يريد أن يتقدم لخطبتها، فأجابتني كما فعلتْ منذ 30 سنة بأنهم سيطلبون منها حينها اسمه! فقلت لها هذه المرة بكل ثقة وسعادة ما لم أقله لها منذ 30 سنة: «أعطهم اسمي! وحددي لي موعد لزيارتكم!»، وبخلاف ما حدث منذ 30 سنة، كادت أن تطير من الفرحة! بل كادت أن تضمني إلى صدرها لولا طبيعتها المحافظة جدًا. عيناها اشتعلا بريقًا لم أشهده في حياتي، وفمها انفجر عذوبة وحُبًا أحمر، أظنه ملأ الفصل الذي نقف فيه وحدنا! انتشلتْ بعد

ذلك حقيبتها القماشية السوداء من على المقعد المجاور لها واستأذنت مني للإسراع إلى أهلها لِتَزُف لهم هذه البُشرى التي لم أكن أتصور أنها بالغة الأهمية بالنسبة لها إلى هذه الدرجة!

ثم كان أن انتهت الساعتان وأعادني سوار يدي اليسرى الرقيق إلى الحاضر، لأنصدم بأنني صرت فيه شبه شحاذ، فماذا حدث!؟ أهناك خطأ ارتكبته قبل عودتي؟ هل أربكت شيئًا دون قصد؟ أبدو أكبر من عمري بنحو 10 سنين! جالسًا على عتبة أحد البيوت في شارع لم أعرفه، أدخن على غير عادتي! تفقدت بلساني أسناني فلاحظت سقوط بعضها على غير عادة حاضري الأول؛ إذ كنت مواظبًا على الاعتناء بها، حتى أن طبيب أسناني تذمر يومًا منها قائلًا لي: «لو كانت الناس كلها باهتمامك لأغلقنا عياداتنا!»

t.me/alanbyawardmsr

ماذا حدث؟ سرعان ما تراكمت الصور في ذاكرتي، بدأت ذاكرة حاضري الجديد في الظهور تباعًا وكأنني عشتها لحظة بلحظة، فتذكرت أنني تزوجت سريعًا من زميلة دراستي التي لطالما تمنيت أن أتزوج منها، ثم وقعت في حفرة ضغوط نفسية خانقة بعد الزواج؛ فرغم أنني من المحظوظين من بين زملائي حيث أنفق أبي -المقاول السابق- آخر ما يملك لبناء 3 بيوت لي ولأخويّ فوق بعضها البعض على الأرض التي كانت حديقة المنزل، إلا أنها كانت حينما خطبتها مجرد هيكل أولي بحاجة إلى الكثير من الأرصدة لتتحول إلى 3 بيوت صالحة للسكن، فمن أين لي إتمامها!؟ كنت بحاجة إلى المال، فاستغرقت سنتين ونصف من فترة خطوبتنا في أروقة الجامعة لإتمام دراستي تحت غليان زميلتي/خطيبتي وتذمرها المستمر، ثم أهدرتُ سنتين من عمري لأداء الخدمة العسكرية الإجبارية، ثم سنة ونصف باحثًا عن عمل، قبل أن أتحصل على وظيفة لكن بمرتب هزيل، فكانت ست سنوات كئيبة بلا دخل مالي مُجزي يجعلني قادرًا ليس على إكمال بناء بيتي بل حتى مصاريف حفل الزواج وما بعده!

t.me/read4read

الأنبياء وأرض مصر
فور ريد

كانت زميلتي طوال تلك السنوات تتذمر وتشكو، ثم صارت تتأفف وتشتم اليوم الذي قُبِلَت فيه خطبتي، ثم طفح بها الكيل وطلبت فسخ خطبتي! وبعد زواج مشروط ثقيل كرهتني! لأنني أضعت عليها فرصة الزواج بابن عمها الذي سافر بعد أن تزوج بغيرها إلى ألمانيا في بعثة تدريب من الشركة التي كان يعمل بها هو أبوه، (في حاضري الأول كانت هي صاحبة هذا الرحلة!).

بقيت ساعات تائهًا أريد العودة إلى بيتي في شوارع تغيرت كثيراً عن ما عرفته في حاضري الأول، حينما وصلته تبين لي أنني لم أعد أسكن هناك، سألت الجيران -الذين بدوا لي جُددًا لا أعرفهم من قبل- فبعثوني إلى حي لم أسكنه في حاضري الأول. حينما وصلت إلى بيتي فيه صُدمت لأنني لم أجد فيه أبنائي وبناتي كما عرفتهم! هناك ولد عيناه زرقاوان، كعيني زميلة دراستي، وفتاة بدينة ذات شعر أصفر كشعرها، قالا لي إنهما ابني وابنتي منها! لكنهما كانا ثقيلي الدم بشكل مؤلم جدًا! بالطبع يحدث هذا التغيير في الحاضر الجديد في حالة حدوث تغيير طارئ في الماضي الأول؛ فلهذا التغيير عواقب تتوالى حتى تصنع حاضرًا يختلف عن الحاضر الذي جئت منه.

في حاضري الأول تأخرت عن الزواج وشعرت بغصة استمرت سنوات، غير أنني رغم ذلك الإحساس المؤلم رُزقت في بداية أربعينياتي بزوجة تشكيلية صغيرة رقيقة وجميلة جدًا، منها كسبت أجمل ولديْن وأجمل بنتيْن، أين هم من أبناء هذه العجوز!؟ أين هو جمال وذكاء أولادي وبناتي من هؤلاء الذيْن شعرت بالبكاء ما إن عرفت أنهما ابني وابنتي الجديدان! يا إلهي كم جَنَّبَني القدر مآسيَ حينما عرقل زواجي بزميلة دراستي هذه!

لهذا قررت العودة فورًا إلى الشركة لأعيد تصحيح هذه الكارثة، أريد أن أعود إلى ذات اليوم المشؤوم لأقول لها: «تزوجي من ابن عمك! فذلك أفضل لك ولي!». أريد العودة إلى حاضري الذي كنت أتأفف منه؛ فقد أدركت أنه

t.me/alanbyawardmsr
t.me/read4read

أنسب لي! بل أجمل حاضر يمكن أن أعيشه في حياتي!

لكن حينما ذهبت إلى مقر الشركة لم أجدها! إذ انتقلت في هذا الحاضر الثاني إلى مكان آخر لا أعرفه! نعم كل شيء يتغير ما إن يحدث تغييراً طفيفًا في الماضي الذي نعهده. وحينما وصلت مقرها الجديد بعد متاهة طويلة وسط الكثير من الشوارع الجديدة تبين لي أنه لم يعد يتوفر لدي المال اللازم لأصحح هذه الكارثة! صرت بحاجة إلى سنين إضافية من العمل المُضني لجمعه! ثم فجعوني بالقول إنه إذا ما عدت للمرة الثانية إلى الماضي، فإنني حتى ولو صححت خطئي، يستحيل أن أعود إلى حاضري الأول! سأعود إلى حاضر ثالث مختلف قليلًا أو كثيراً عن حاضراي الأول والثاني الذي كرهته وأريد إعدامه! ستكون مجرد مجازفة ثانية حُبلى بالكثير من التغيرات التي قد تكون أفضل في بعض متغيراتها وأسوأ في متغيراتها الأخرى!

أدركت عندها أنني دفعت ثمنًا باهظًا لمعاكستي مصيري؛ من الواضح أن قراري آنذاك وأنا قليل الخبرة كان أعمق وأحكم من قراري التالي وأنا في منتصف العمر، أو أنه كان منسجمًا مع خطوط القدر الطبيعية الأبدية.. أي تلك المعادلات الصحيحة التي سار ويسير وسيسير وفقها الكون دون أي خطأ، خطوط كنا نتبعها بلا إدراك منا لأهميتها، كنا نُسلم لها أنفسنا مثلما تُسَلِّم أشرعة السفينة صدورها لرياح الطبيعة.

الآن فقط فهمت ما قصد الفيلسوف اليوناني الغامض (هرقليطس Heraclitus)، (535-475)ق.م. من قولته الشهيرة: «لا يمكن أن تَعبر نفس النهر مرتين!».

t.me/alanbyawardmsr
t.me/read4read
فور ريد
الأنبياء وارض مصر

خاتمة

هذه هي مجموعتي الثانية في مجال أدب الخيال العلمي.. للكبار مرة ثانية! حيث مازال سائدًا في الثقافة العربية أن قصص الخيال العلمي ليست سوى فرع من أدب الأطفال! يستهدف الرفع من ثقافتهم التقنية، مع أن أفلام هوليوود للخيال العلمي تحصد أكبر الإيرادات عالميًا، فهل روادها هم الأطفال؟ أم أن نصها يستهدف الأطفال؟ بالطبع لا؛ فالكبار لهم كذلك أسئلتهم التقنية والمستقبلية، ويريدون التعرف على مجتمعات المستقبل الذي تتداخل فيه حياتنا مع الآلة والكواكب الأخرى، بل أجسادنا ذاتها صارت على محك الاندماج مع هذا التداخل.

مع ذلك حاولت في مجموعتي هذه تكرار ذات النمط الذي اتخذته في الأولى، أي البساطة في المعالجة (لا المادة!)؛ نظرًا لحداثة هذا اللون الأدبي علينا، ولأنه يشتمل على حقائق علمية غير متداولة بيننا إلا لدى أقلية متخصصة. فضَّلت في هذه المرحلة خوض ما يُعرف منذ سبعينيات القرن الماضي بـ(الخيال العلمي السهل Soft Science Fiction)؛ حيث يعتمد على أحد هذيْن العنصريْن أو كليهما:

الأول: استكشاف العلوم السهلة، بالأخص العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع وعلم النفس والعلوم السياسية، بدلًا من الهندسة أو العلوم (الصعبة)، كالفيزياء وعلم الفلك والكيمياء.

والثاني: عدم التركيز على الدقة العلمية، حيث يهتم بالتأمل في الشخصيات والمجتمعات بدل التفاصيل التقنية والهندسية.

غير أن هذا الصنف يُعد في النهاية جزءًا من أدب الخيال العلمي الذي تتوزع قصصه على مجموعة من العناوين المختلفة ، أشهرها:

1. سفر عبر الزمن.

2. استعمار كواكب أخرى.
3. استنساخ.
4. ذكاء اصطناعي.
5. آليون (الآليون وبشر آليون جزئيًا وآليون بشر، أي يحملون شكل أو ذاكرة ومشاعر بشرية).
6. غزو فضائي للأرض.
7. خيال علمي عسكري: حروب واحتلالات مستقبلية بين حضارات وكواكب.
8. تاريخ بديل (إجابة السؤال: ماذا لو؟).
9. المستقبل الأسود: الأرض والبشر بعد حرب نووية مدمرة.
10. أبطال خارقون.
11. خيال علوم الماضي (مخترعين سابقين لعصرهم في الماضي، دجيم ويست كنموذج).
12. حيوانات ووحوش عملاقة.
13. كوميديا خيال علمي.

على أي حال، كثيراً ما نجد قصص الخيال العلمي تدمج ما بين عنوانيْن أو أكثر من هذه العناوين؛ أي يمكن أن تكون (مستقبل أسود) و(ذكاء اصطناعي)، أو (سفر عبر الزمن) و(استعمار كواكب أخرى)، وهكذا.

الفانتازيا والخيال العلمي

غير أنه يجب أن لا نُخلط بين قصص الخيال العلمي وقصص الفانتازيا؛ فرغم أن (الخيال) يجمعهما، إلا أن الفارق الجوهري بينهما هو أن الفانتازيا لا تعتمد على القواعد والمعادلات الفيزيائية المثبتة صحتها التي يتسم بها الخيال العلمي؛ حيث

تتخذ من السحر والأساطير والخرافات الدينية والشعبية عناصر لها، والتي لا تنطلق من أي حقيقة أو قاعدة علمية مثبتة صحتها. وفي الوقت الذي تحققت فيه الكثير من قصص الخيال العلمي (أهمها رحلة إلى القمر) لا ننتظر أن تتحقق أوهام السحر والأساطير والخرافات؛ فمازالت العصا السحرية والجن ومصاصي الدماء والتنانين والحيوانات الناطقة ومجتمعات الأقزام بعيدة عن المعادلات العلمية المثبتة؛ بعكس قصص الخيال العلمي التي تنطلق أصلًا منها. على أي حال لو ثبتت يومًا صحة أي من عناصر الفانتازيا علميًا (كفتح بوابة بالنطق الجهوري لكلمة سرها!) فكل ما سيحدث هو أنها ستخرج من الفانتازيا إلى الخيال العلمي! ويبقى الفارق بين الاثنين قائمًا!

عن قصصي الشخصية كتبت حتى الآن ضمن الأصناف السبعة الأولى التي ذكرتها أعلاه، سواء في مجموعتي السابقة أو الحالية، متخذًا ذات نهج المجموعة السابقة وهو (الحدوتة) التقليدية من بين أساليب الحكي المعروفة في القصص القصيرة؛ لا لشيء إلا لأنني لا أريد إرهاق القارئ العربي؛ فهناك حقائق فلكية وعلمية وزمنية ربما تكون صعبة مَزَجْتُ بها قصصي عمدًا ضمن نهجي التثقيفي بهذه العلوم المتقدمة التي مازالت تحبو في الثقافة العربية للأسف؛ لعلها تساهم في جذب مجموعة من الشباب للتخصص فيها والمساهمة مع أمم العالم المتقدم في جني فوائدها الهائلة، وحتى يسهل على القارئ العربي استيعاب مغزى قصصي المطعمة بهذه الحقائق غير المتداولة كثيرًا في الإعلام العربي. لم أتخذ أساليب الحكي الاستباقي والاسترجاعي والتواتر الزمني، أي القفز زمنيًا في الحكي من المستقبل إلى الماضي أو العكس؛ لأنني رأيت أن أسلوب الحدوتة التقليدي هو أفضل أسلوب حكي لغير المألوفة عنده.

كما حاولتُ جعل أسماء بعض الشخوص والأمكنة والألبسة والأطعمة عربية ليبية أو شرقية من حين لآخر، كرسالة مباشرة لتأكيد قناعتي التي ذكرتها في مقدمة مجموعتي الأولى بأننا كعرب وأمازيغ وتبو وتوارق وقريتلية وأكراد وكلدان آشوريين وسريان ويزيديين وصابئة وأرمن وشركس وتركمان وفينيقيين... إلخ- سنكون بالتأكيد موجودين بثقافتنا وأسمائنا في المستقبل، جنبًا إلى جنب مع

الأمم الإنسانية الأخرى ولو كأقلية! على الأقل بناءَ على معدل مواليدنا المرتفع عالميًا! إذ تُشعرنا الكثير من روايات وقصص وأفلام الخيال العلمي الغربية وكأننا انقرضنا ولم يعد لنا أي وجود في المستقبل! كما أنني بذلك أريد أن أربط قارئ العربية بهذا الأدب الذي يحسبه بعيد عنه؛ فأدب الخيال العلمي لا يعني أدب غربي بقدر ما يعني إدخال عناصر الآلة والتَّحَوّرات المُوَرِّثية (الجينية) واختلافات الزمان والأمكنة الفضائية إلى الأدب الإنساني عمومًا.

ومثلما فعلتُ في مجموعتي الأولى، جعلتُ بعض قصص مجموعتي هذه غلاف أو بيئة تقنية تتماشى مع العصر لمناقشة أفكار فلسفية ودينية وأخلاقية، أو تطرح أسئلة علمية حاضرة أو قضية أخلاقية مستقبلية قد تَنْتُج من اختراع جديد أو تطوير حيوي ما، أو تقدم حلًا لها، أو حتى تناقشها؛ أي أن قصصي ليست فقط متعة أدبية أو مجرد محاولة مني لسبر هذا اللون الأدبي الجديد في الأدب العربي، بقدر ما أجدها فرصة لأعطي رأيي ومقترحاتي وحلولي في قضايا العصر التقنية والفكرية، كما أعرض حيرتي وأسئلتي الشخصية تجاه بعض التقنيات الجديدة التي أجدها تتقاطع مع الفكر والأخلاق والحياة الإنسانية ومصيرها مستقبلًا.

وفي أسلوب أظنه غير متداول كثيرًا، عملتُ على ربط بعض شخصيات وأحداث بعض قصص المجموعة الأولى ببعض قصص هذه المجموعة، فجعلت بعضها كجزء أول سابق أو جزء تال نشر مسبقًا لبعض قصص هذه المجموعة؛ حيث لم أُرِد لمجموعتي الأولى أن تكون مجرد عمل منفصل عن أعمالي التالية، أو مجرد يتيم ليبي وسط الأدب العربي للخيال العلمي، نسيه الزمن.

أخيرًا أتمنى أن تجد في هذه المجموعة ذات المتعة والتشويق الذي وجده الكثير من القراء في المجموعة الأولى التي صدرت منذ أكثر من عقد.

م. عبدالحكيم عامر الطويل

طرابلس الغرب، 2017/06/24

المحتويات

القصة	الصفحة
لغز المقبرة	7
مشكلة حمل	14
الحق في الحب	20
قتل.. أم انتحار؟	25
مرشد سياحي على القمر	30
ورطة تشكيلية	37
محطة (كايپر) النووية	48
مذكرات آلي	52
بنت أبيها	58
ورم الحنين	63
عكس النهر	69
خاتمة	75
سيرة الكاتب	79